رواية

صيد العصارى



محمد جبريل

صيد العصاري

مد ج يل

فهرس

كتبت " الشاطئ الآخر " تنويعاً علي لحن الوطن.

وكتبت " زمان الوصل " تنويعاً ثانياً.

و"زوينة" تنويعاً ثالثاً..

هذه الرواية تنويع ـ لعله الأخير ـ علي اللحن الذي يبحث عن إجابة السؤال: **ما الوطن**؟

إلي الطبيب الأرمني مردروس

جاري القديم الذي ظل ـ منذ طفولتي ـ " حالة " تثير الذهن بالأسئلة والملاحظات

- ١ -

عزيزي الأديب الشاب صلاح بكر. لم تعد العبارة تجتذبني. لا أشعر وأنا أقرأها بما كان يملأ نفسي من الزهو. بدت الطريق بلا نهاية، أو مسدودة. يترك لي الرسالة الصغيرة في مظروف مغلق. عزيزي الأديب الشاب. يتبعها بعنوان التحقيق الذي يطلبه. قلت لقاءاتنا، أو اختفت تماماً. تصور - ربما - أن الخطوة الأولي تليها بقية الخطوات..

لم يكن ذلك ما تطلعت إليه، ولا أحببته..

ما معني أن أكتب ما ينشر باسم غيري؟..

المصادفة - وحدها - هي التي نبهتني إلي خطأ ما أفعله. عزيزي الأديب الشاب صلاح بكر. أرجو أن تكتب دراسة في نحو ست صفحات عن مكاسب مصر من تحركات وزارة محمود فهمي النقراشي..

حين ترك رسالة يتعجل فيها الدراسة، كنت قد أعددت المراجع، وراجعت - في مكتبة البلدية - صحف السنوات الفائتة. كتبت أسطراً قليلة، ثم مزقتها. كتبت ومزقت. بدت لي الكلمات باردة وبلا معني. لم أجد في داخلي إلا الخواء. حركت القلم - بمعاناة الفراغ - في خطوط ودوائر وتقاطعات وتشابكات. ثم انشغلت - يائساً - بالقراءة. أتوقع، أتمني، أن تستفزني..

أزمعت أن يقتصر ما أفعله علي القراءة والتأمل. لا أتردد علي قهوة فاروق إلا لموعد، ولا أتردد علي الندوات..

قال لي فيصل مصيلحي:

- أنت ضد وزارة النقراشي، فكيف تؤيد خطواتها؟!

أضاف بصراحة اعتدتها منه:

- فعل الكتابة بدون اقتناع أشبه باحتضان المومس لمن لا تعرفهم!

كان يعاني انفعالاً بتأثير خطبة الجمعة في أبو العباس. تحدث الإمام عن عمليات شتيرن والهاجاناه في فلسطين، وعن المذابح التي واجهها أهل صفد وطولكرم وطبرية والناصرة وبيسان وجبال نابلس..

قلت:

- هذه مجرد صحافة.. دراسة صحفية لا شأن لها برأيي..

أردفت في ابتسامة معتذرة:

- لا شأن لي بخلافات النقراشي مع القوي السياسية.. ما يهمني هو موقفه من قضية الجلاء..

كل شئ ضبابي وغير واضح. يختلط الترقب والتصورات والأمل والرؤي والخوف..

انتهت الحرب..

أزيلت السواتر وقيود الإضاءة. رفعت الرقابة علي الصحف والمطبوعات. أبيحت الاجتماعات العامـة. منع اعتقال الأفراد. ألغيت الأحكام العرفية. حلت الحكومة المدنية بدلاً من الحاكم العسكري

ما حدث بدا كالبسمة المصنوعة التي تخفي القلق والتوتر. غامت السماء بسحب متكاثفة، وأطلـت نـذر أخطار متوقعة. نشطت الحركات الطلابية والعمالية. تكونت التنظيمات المشتركة. ارتفع شعار " يحيا الطلبـة مع العمال ". تجددت المظاهرات في الإسكندرية والزقازيق والمنصورة. تكرر إغلاق جامعة القاهرة. اعتصم طلبة كلية العلوم بجامعة الإسكندرية. قتل بأيدي قوات البوليس في ميدان محطة الرمل ٢٨ متظاهراً، وأصيب ٤٢٤. توالت المظاهرات. تخرج من المدارس والجامعات، تجوب الشوارع والميادين، تعم المـدن، تهتـف بالشعار: الاستقلال التام أو الموت الزؤام. الأوامر صريحة بإطلاق النار في المليان. الاجتماعات ممنوعـة. الاعتقالات دون أسباب. مصادرات الصحف تتوالي.

جلاء الإنجليز عن مصر قضية تشغل الجميع، القضية التي تشغلني، القضية التي يجب أن تشغلني. تبدو كل الموضوعات التي يقترحها عيسوي أبو الغيط شاحبة، أو تافهة..

أعدت قراءة المراجع، وما نقلته عن الصحف..

كتبت ما أقتنع به..

- ثم ماذا؟

قال فيصل:

- ضع ما كتبت في مظروف، وابعث به إلي الجريدة أو المجلة التي تأمل أن توافق علي نشره

كانت مدرجات الجامعة أول رؤيتي لفيصل مصيلحي، وأول تعرفي إليه. محاضرات الـدكتور محمـد محمد حسين طرف خيط نلتقطه في مناقشات، مفرداتها دولة الخلافة والحروب الصليبية والأفغـاني ومحمـد عبده وطه حسين وسلامة موسي واجتهادات المستشرقين. نشاطه السياسي يقتصر علي تأييد مواقف الإخوان المسلمين، والدعوة لها. تتشابك تسميات الإمبريالية والنازية والفاشية والشيوعية والاشـتراكية والرأسـمالية. تختلط التيارات السياسية، السرية والمعلنة: الإخوان المسلمون، التنظيمات اليسارية، الطليعة الوفدية، الأحرار الدستوريون، مصر الفتاة. ملصقات الشوارع والكتابة علي الجدران تعكس اختلافات الـرؤي: ا أكبـر و الحمد.. الخبز والحرية.. مطلبنا القضاء علي الفقر والجهل والمرض.. الاستقلال التام أو الموت الزؤام.. لا مفاوضات إلا بعد الجلاء.. نريد الخبز بدل السلاح.. الدين أفيون الشعوب.. عاشـت وحـدة وادي النيـل.. تبرعوا لمشروع الحفاء.. يحيا الملك مع النحاس.. يا شباب ٤٦ كن كشباب ١٩.. ا أكبر والمجد لمـصر.. القرآن دستورنا والرسول زعيمنا والموت في سبيل ا أسمي أمانينا. جماعة الإخوان هي التعبير عن التيـار الإسلامي، لا جمعيات إسلامية أخري توازيها. يتحدث فيصل عن بدايات الجماعة فـي الإسـماعيلية عـام ١٩٢٨. كان البنا ـ يسبق اسمه صفة الأستاذ ـ متأثراً بوجود القوات الإنجليزية في منطقة القنـاة. تـتقلص ملامحه: الاستقلال واجهة براقة لواقع زائف. تتلكأ الكلمات في فمه: استبدلنا الـسفير بالمنـدوب الـسامي.

يضيف: حتي الملك هتف المتظاهرون ضده للمرة الأولي. ثم وهو يغتصب ضحكة: بعد أن كان الملك الصالح، صار ملك النساء. يردد أسماء: حسن البنا ومحمد الغزالي وسيد سابق وصالح عشماوي.

رنوت إلي الدهشة في عينيه، رد فعل لعرضه بأن أعمل في الشركة. ترك أبوه له إدارتها من قبل أن يتخرج في الكلية.

قلت:

ـ قد لا يكون لليسانس اللغة العربية قيمة في حالتك. أنت صاحب الشركة..

واغتصبت ابتسامة:

ـ الأمر معي يختلف..

المكتب في الطابق الثاني من بناية علي تقاطع شارع التتويج وشارع سوق السمك القديم. يمضي الترام ـ وحركة الطريق ـ من اليمين ـ إلي بحري، ويتجه ـ في الناحية المقابلة ـ إلي ميدان المنشية. تطل الواجهة علي مساحة ما بين عمارتين في طريق الكورنيش. تتسع باتساع زاوية الرؤية ليبين مصد الأمواج المفضي إلي خارج الميناء. الحجرة المجاورة للباب تؤدي هناء زكريا عمل السكرتارية، والاتصال بالعملاء. مكتب فيصل مصيلحي يتوسط الحجرة الملاصقة المطلة علي البحر. خصص لي مكتباً صغيراً لصق الجدار.

ظل ترددي عليه. حجرة المكتب المواجهة للبراح تغري بالحوار. الأخذ والرد. ربما ساعدته في كتابة رسالة، أو مذكرة، أو مناقشة دراسة جدوي. تحول أداء المعاونة إلي أداء عمل. يسر لي القبول بقاء صداقتنا علي حالها. المناقشات، وتبادل القراءات، والتمشي علي الكورنيش، وفض ما بالنفس. لم يعد الفرق بين ليسانس اللغة العربية والعمل في تجارة الورق بالاتساع الذي تصورته. ضاقت المسافة بالوقوف علي أرض الصداقة، ومحاولة تعويض غياب الفهم.

لم يسألني فيصل ـ ذات يوم ـ ماذا أقرأ أو أكتب، ولا حاول السؤال إذا كان ما أنشغل به يخصني، أم أنه عمل المكتب. يضع الخطوط العامة، يشرح تصوراته. يترك لي التصرف حسب ظروفي..

ـ كيف يطمئن الناس إلي الحياة في وطن محتل؟

لا أذكر أين استمعت إلي العبارة. ربما في داخل الدائرة الجمركية، أو في حوار بين سائرين علي طريق الكورنيش، أو تحت مظلة موقف الأوتوبيس بالمنشية، أو أن الذي قالها واحد من المتعاملين مع المكتب. ما أذكره أن العبارة شاغلتني، شغلتني، في الأيام التالية. انبثق السؤال ـ وأنا أكتب تحقيقاً عن التنظيمات النسائية عقب ثورة ١٩١٩ ـ لماذا لا أركز في كتاباتي علي القضية المصرية؟

اطمأننت إلي مشاعري، وأنا أتأمل الدراسة، يسبقها اسمي، منشورة في الصفحة الثامنة بجريدة " البلاغ ".. لكن الجريدة نشرت لي مقالات أخري تالية..

تكررت رسائل عيسوي أبو الغيط، وتكرر إهمالي. أرجو أن تكتب عن حيرة الشباب بين الأحزاب والتنظيمات السياسية. تأثيرات الحرب العالمية الثانية علي الأوضاع السياسية في العالم. دور جامعة فاروق في استعادة الإسكندرية ملامحها الثقافية. حوار مع عالم الأحياء المائية حامد جوهر. علماء الاجتماع يناقشون: كيف نقضي علي الفقر والجهل والمرض؟. هل يعود الوفد إلي أداء دوره بعد حادثة ٤ فبراير

والكتاب الأسود؟. هل تحقق الجامعة العربية فكرة التقارب بين دول المشرق العربي؟. أيهما أسبق في التعبير عن عواطفه للآخر: الشاب أم الفتاة؟. متي تحصل المرأة علي حقوقها السياسية؟

لم يطل توقعي لزيارته..

رمقه فيصل مصيلحي بنظرة متوجسة. تأنقه الواضح بالبدلة الشاركسكين، الكحلية اللون، وياقة القميص المنشاة، والكرافتة التي انسجم لونها مع لون البذلة..

بدا الحرج في وقفة أبو الغيط المترددة علي باب المكتب. دعوته إلي الدخول وأنا أترك موضعي وراء المكتب.

سرنا إلي نهاية الطرقة..

ـ خاصمتني؟

بدا السؤال مفاجئاً، وغريباً:

ـ مستحيل!

ـ لا ترد علي رسائلي..

ـ أعتزم تنفيذ ما تطلبه، ثم تجرفني الظروف..

ـ كتابة؟

ـ لكنها ليست ما تطلبه مني..

وداخل صوتي انفعال:

ـ تشغلني قضايا أهم..

ـ هل المكافأة قليلة؟

ـ أبداً..

ـ لم ألزمك بكتابة شئ تأباه..

ـ صحيح.. لكن ما أكتبه في الفترة القادمة سيقتصر علي قضية الجلاء..

ـ إجازة قصيرة إذن؟

ـ ليتك تعتبرها كذلك..

بدت لي الدعوة إلي جلاء الإنجليز هدفاً يستحق أن أركز كتاباتي عليه. إذا خرج الإنجليز لم يعد للملك، ولا لأحزاب الأقلية، ما يفرضون به أنفسهم علي المصريين. يحكمون بقيادة الوفد، أو بالقيادات التـي تبـين سياستها فيما تنشره صحف المعارضة، وما يثار في الاجتماعات العامة. كنت أشارك في المظـاهرات أردد شعارات الاستقلال، وفي حضور الاجتماعات السياسية، ومؤتمرات اللجنة الوطنية للعمال والطلبة، لكنني لـم أكن علي صلة بأي تنظيم، وليس بيني وبين من استمع إلي خطبهم، ولا هتافاتهم بالـشعارات، صـداقة ولا معرفة..

كتب علي لافتة العيادة بخط كوفي: الدكتور جارو فارتان - طبيب أمراض باطنة وقلب. لم أره يعتذر عن أية حالة. حتي أمراض العيون والجلد والعظام، كان يشير بأدوية، يكتبها في دفتر الروشتات. تخصـصه في أمراض القلب. حدثني عن ملاحظته بأن المرضي يقصدون طبيب أمراض الباطنة، يعالجهم، أو يحـيلهم علي الطبيب المتخصص..

استروحت الطيبة في ملامحه: البشرة البيضاء المشربة بالحمرة، الشعر الأبيض القليل، المهوش، فـوق الرأس، العينين اللوزيتين الساجيتين تطلان من وراء النظارة الطبية المستديرة، ذات الإطار الذهبي، ويعلوهما حاجبان تساقط معظم ما فيهما من الشعر. أسفل الفم ذقن بيضاء مدببة، كأنها ندفة قطن. تناثرت علي ظهـر يديه بقع بنية خمنت أنها بتأثير الشيخوخة. ارتدي بالطو أبيض علي جاكت من الكتان، وقميص بـلا ربطـة عنق. يبدو متمهلاً، بطيئاً، في كلماته وإيماءاته..

ترددت علي العيادة لحساسية في صدري. زاد السعال، وتواصل. عانيت أزمات حقيقية. أشار فيـصل مصيلحي بأن أتردد علي الدكتور جارو. قدّر أن أعوام عمره أتاحت له أكبر قدر من الممارسة.

لمح في يدي كتاب محمد خطاب " المسحراتي ". قال وهو يميل بالسماعة علي صدري:

- هل لك اهتمامات سياسية؟

قلت:

- أنا أكتب في السياسة..

- أين؟

- في الصحف.

وتنبهت إلي أن اسمي لم يذيّل شيئاً مما كتبته:

- ليس في جريدة محددة.

غادرت العيادة بروشتة دواء، وموعد استشارة، ودعوة إلي لقاءات تالية.

قبل أن يترك الدكتور باب العيادة مفتوحاً، ويجعل باب حجرة الكشف مواربـاً، كـان عطيـة يـستقبل المترددين. في حوالي الخامسة والعشرين، أبرز ما يميزه عينان واسعتان، وبشرة أميل إلي السواد، بها آثـار جدري قديم. يرتدي قميصاً وبنطلوناً، لا يغيرهما، وإن أضاف إليهما - في الشتاء - بلوفر واسعاً علي جسده الضئيل. لم يكن يؤدي عملاً محدداً، هو ممرض، وخادم، ويعد القهوة للطبيب وزواره، ويشتري الاحتياجات من شارع الميدان، ويبيت في داخل الشقة.

استغني عنه العجوز لأسباب كتمها. أهمـل سـؤالي عـن غيـاب الـشاب. غمغـم بكلمـات غيـر واضحة، وسكت.

فهرس

قلت وأنا أشير إلي القميص علي صدري:

ـ لم أتوقع تبدل الجو بعد الظهر..

قال:

ـ نحن في سبتمبر.. لا مفاجأة في الحر أو البرد..

ترددت علي عيادة الدكتور جارو فارتان للصداقة لا للمرض. لم يكن يشعرني بفارق السن. لم أضعه حتي في موضع الأب أو الأخ الأكبر. هو صديقي. تختلط ـ في مناقشاتنا ـ تطورات الأوضاع السياسية وأحوال الجو والمسرحيات والأفلام وما تنشره الصحف. إذا تكلم، اتجه إلي محدثه بنظرة مباشرة كأنه يتعرف إلي رد الفعل. أبدي ملاحظات، لا أتدبر بعضها جيداً. يظل علي هدوئه. يأذن لي ـ بمداعباته ـ بتبادل النكات والدعابات. أدرك مشاعره العميقة تجاهي، مشاعر لا ترتبط بسن، ولا تجربة عمر، ولا مكانة اجتماعية.

البناية علي ثلاث واجهات. طابقها الأرضي يشغله مصنع للبلاط. اكتفي بالباب الرئيسي مفتوحاً علي شارع إسماعيل صبري، وتحولت الأبواب الأربعة الجانبية علي فاترينات لعرض نماذج من إنتاجه، بينما ظلت الأبواب الخلفية مغلقة. أول الطوابق الثلاثة تشغله عيادة الدكتور جارو، والثاني لأسرة صاحب البناية والمصنع. اسم الحلبي يشي بانتسابها إلي سوريا. أما الطابق الثالث، فيبين ـ من النداءات والمناقشات المترامية من شرفاتها ونوافذها ـ أنها أسرة كبيرة العدد..

الشرفة ـ في زاويتي البناية ـ تطل علي حارة صغيرة، تفصل بينها وبين مجيرة غطي الجير معظم مساحتها، وتناثر علي الجانبين رصات طوب أحمر وشكاير أسمنت، وتطل ـ من الناحية الثانية ـ علي شارع إسماعيل صبري بحركته الهادئة ودكاكينه. ومن الخلف تبدو مئذنة جامع سيدي علي تمراز، والشارع الخلفي الممتد أمامها إلي شارع التمرازية. يفضي ـ من ناحية ـ إلي شارع رأس التين، ومن الناحية الثانية إلي الشارع الموازي لشارع الميدان.

النظر من شرفة الزاوية يمضي إلي التقاء شارع إسماعيل صبري بتقاطعات شوارع فرنسا والتتويج وطريق الكورنيش. في نهاية الامتداد السور الحجري المطل علي المينا الشرقية، تتناثر فيها ـ عن بعد ـ قوارب صيد العصاري من المياس والبوري والبربوني والمرجان..

قال:

ـ ماذا تقرأ هذه الأيام..

عرفت ـ من أحاديثه ـ أنه أجاد ـ بعد قدومه إلي القاهرة ـ قراءة العربية وكتابتها، وإن لم يستطع أن يتخلص من اللكنة. هل لأنه قليل الاحتكاك بالمجتمع الذي يعيش فيه؟. ربما استبدل الكلمة العربية بمفردة من لغته التي لا أعرفها، أو بالإنجليزية، فتسهل متابعتي.

قلب ـ ذات عصر ـ في الكتب التي غطت واجهة المكتبة الخشبية الصغيرة. سحب من أسفل، طاولة علاها التراب.

قلت لنظرته المحرضة:

ـ لم ألعب الطاولة من قبل.

قال:

ـ أعلمك.

أردف في لهجة من يملي أمراً:

ـ لا تكتف بالقراءة هواية وحيدة!

تعددت محاولاته. يفتح ضلفتي المستطيل الخشبي. يشير إلي مفردات اللعبة: الدبش، الزهر، اليك، شيش بيش..أقاده في نقلات القشاط. ألاحظ عدم انبساطه. أطلب تكرار معاونته.

هز رأسه ـ في النهاية ـ وهمس:

ـ لا بأس بالقراءة هواية وحيدة!

قلت:

ـ أركز علي قراءات أفيد منها في الكتابة عن الاحتلال الإنجليزي لمصر..

ـ لكن مصر دولة مستقلة..

ـ أناقش وجودهم العسكري في منطقة القناة..

ـ لن يخرج الإنجليز من مصر إلا بالقوة..

ثم وهو يهز رأسه:

ـ إنهاء الاحتلال الإنجليزي هدف يجب أن يتفق المصريون عليه.

قلت:

ـ النقراشي لا يتعامل مع القضية المصرية بالجدية المطلوبة..

ـ سخطك علي تحركات النقراشي.. لا ينفي إعجاب الناس به..

وابتسمت عيناه اللوزيتان:

ـ ألم تر حفاوة المصريين باستقباله؟

وغلب علي صوته سخرية:

ـ أعجبهم قوله للإنجليز في مجلس الأمن: أخرجوا من بلادنا أيها القراصنة!

قلت:

ـ مشكلة الحكومات المصرية أنها وجدت في الشيوعية خطراً وحيداً..

قال:

ـ ما تشهده مصر الآن مظاهرات لم تعرفها منذ ١٩٣٥..

وسرح بنظراته:

ـ من متابعتي.. أتوقع المقاومة المسلحة..

وسكت.

يعد نفسه من المحظوظين بعد أن منعت الحكومة الجنسية المصرية عن معظم النازحين من الأرمـن، لكنه يحرص أن يظل علي الهامش. لا شأن له بقضايا المصريين ولا مشكلاتهم. يشاهد ـ ويتابع ـ مشكلات لا تخصه، لا تجره إليها. يكتفي بالإنصات، ومحاولة الفهم، لا يتدخل بملاحظة، أو برأي. يجتذبه الحوار، ثم ما يلبث أن يتنبه..

بدا أنه رسم لوحة للعالم، وشاها بالألوان والظلال. استقر علي أن هذه هي صورة العالم. رفض ما عداها من صور تختلف عما رسمه في لوحته. بدا العالم غريباً، ومعقداً، ومربكاً، ومن الصعب تغييره..

قلت لمجرد أن أكسر الصمت:

ـ انتهي النقراشي منذ حادثة كوبري عباس..

ونظرت ـ بتلقائية ـ ناحية الشرفة المطلة علي المينا الشرقية:

ـ ضغط علي كل الأزرار فأحدث ما نشهده الآن من إضرابات ومظاهرات..

طقطق بلسانه في استياء، وظل صامتاً..

قلت:

ـ أثق أن استقلال مصر يشغلك. إنها وطنك الثاني..

ـ تغيظني عبارة وطنك الثاني..

وومضت عيناه بما لم أتبينه:

ـ أعرف أني لست في وطني.. طائر بعيد عن سربه..

وسري في صوته تأثر واضح:

ـ صعب أن تحيا في بلد لا أهل اك فيه..

قلت:

ـ نحن أهلك يا دكتور جارو..

وهو ينتزع ضحكة:

ـ كلام جميل.. لكن ما تبقي من أهلي يحيون في الوطن أيضاً..

قلت:

ـ الوطن مفهوم برجوازي..

قال جارو فارتان:

ـ هذه مجرد كلمات نظرية.. شعارات لا معني لها..

ثم وهو يعدل النظارة الطبية فوق أنفه:

ـ يضايقني تباين النظرتين: الشفقة والرفض. الشفقة لأني مطرود من بلادي، والرفض لأني أجنبي..

وشوح بيده:

ـ دعك من أني طبيب ولست مجرد لاجئ..

قلت:

ـ ألم تفكر في الزواج؟

ـ قرار الزواج إن لم يتخذ في وقته المناسب، فعلي الإنسان أن يتناساه!

وشرد في الفراغ بعينين ساهمتين:

ـ كان الزواج متاحاً في أعوام إقامتي داخل المخيم. شهد المخيم ـ في أعوامه الأولي ـ حالات خطوبة وزواج، سرية وبلا إجراءات قانونية أو دينية. مجرد أن يقتنع أحدهما بعرض الآخر، يمارسان حياتهما الزوجية باعتبارها كذلك. من يلتقط طرف الخيط. فطن مسئولو المخيم إلي الزيجات المفاجئة، والتي لم يتحدث عنها أحد. شجعوا قيام أسر بواسطة الكنيسة. زادت حركات الزواج والإنجاب. انشغلت حتي الأذنين في ولادة جيل جديد من الأرمن. اكتفيت ـ كما تري ـ بهذا الدور. لم أشارك في هوجة الزواج، لأني لم أتصور نفسي زوجاً في ظروف تفتقد الاستقرار..

وران انكسار علي صوته:

ـ غاية ما أستطيع القيام به الآن هو دور الأب!

حدثني عن فترة ما بعد استقراره في الإسكندرية. تعرف إلي عائلات أرمنية، كون صداقات مع المترددين علي العيادة، ومع جيران البيت. مرة وحيدة تطورت العلاقة مع امرأة مطلقة من الإسكندرية. لمحت بالموافقة علي زواجهما، وإن تحدثت عن رفض الإسلام زواج المسلمة من كتابي. تقبل فكرة الحياة وحيداً. انطوائيته تغلبت. يترك العيادة إلي البيت، وإلي زيارات متباعدة إلي النادي الأرمني " ديكران يرجات ". راجع نفسه في لحظة التفات إلي الوراء. كان الأفق بعيداً، فآثر العزوبية.

وهو يلقي في جوفه حبة متداخلة الألوان، أتبعها بجرعة ماء:

ـ لعلاج أمراض الشيخوخة!

وأغمض عينيه. بدتا كشريطين أسفل حاجبيه:

ـ أنا مثل بناية مهددة بالانهيار.. تعالج تصدعاتها بالترميمات، لكنها تظل عرضة للسقوط في أية لحظة..

قلت:

ـ كلنا بنايات مهددة.. الموت لا يفرق بين كبير ولا صغير..

تباطأت الكلمات علي شفتيه:

ـ هناك الاحتمال والحتم. أنا الآن في مرحلة الحتم.. الانتظار..

وأنا أرنو إليه بنظرة مشفقة:

ـ في ظهور كل صبح ما يدعو الإنسان إلي شكر ا !

كان يشعر أن الذاكرة لم تعد تسعفه. يظهر تخوفه من انسحاب ذاكرته، فينسي ما لا يصح نسيانه: هل سأظل طبيباً إن نسيت الطب؟!

يحزنه أنه يخفق ـ أحياناً ـ في استدعاء الأمكنة والقسمات والتواريخ. تغيب عن ذاكرته تماماً. يضغط علي جبهته في محاولة للتذكر. يخلي يده، ويهز رأسه في أسف. يرفض كل الأسباب، ويطمئن إلي أن

الشيخوخة ربما كانت ـ وحدها ـ هي السبب. يخشي ـ من تلاشي الذاكرة ـ أن ينسي فتـرة حياتـه فـي أرمينية. إذا حدث ذلك، فسيصبح ـ والتشبيه له ـ مثل مصعد معطل بين الطوابق!

قال:

ـ من الأفضل أن يرحل المرء قبل أن يدركه خرف الشيخوخة..

قلت:

ـ برناردشو تجاوز التسعين دون أن يفقد صفاء ذهنه..

وهو يومئ برأسه:

ـ برناردشو عبقري. أما أنا فمجرد عجوز أرمني..

***

التفت إلي ما يشبه النقرات علي باب حجرة الكشف..

ثمة شئ ما في عينيها، اجتذبني إليها. عينان واسعتان تفيضان بالبراءة والبساطة..

استرقت النظر إلي ملامحها: جمال طفولي، وجسد عفي ـ هذا هو التعبير الذي يحضرني ـ وعينـان زرقاوان، وأنف دقيق، وشفتان رقيقتان كورقتي وردة. في وجنتيها غمازتان، تبتسمان مع ابتسامتها الدائمـة. تدير علي إصبعها ـ بعفوية ـ خصلة الشعر الكستنائي المسدلة وراء أذنها. لا تستعمل المساحيق، ولا أحمر الشفاه. ترتدي فستاناً أبيض، علي جانب صدره الأيسر رسم وردة حمراء..

اتجهت نحو الدكتور جارو بابتسامة كأنها جزء من ملامحها:

ـ نورا أندريا بابيجيان.. مصرية من أبوين أرمنيين..

هز رأسه يستحثها علي المتابعة..

ـ أعد رسالة عن مذابح الأرمن أعوام الحرب العالمية الأولي وبعدها..

ـ وبماذا أفيدك؟

ـ قيل لي إنك قد تفيدني..

أسند رأسه إلي ظهر المقعد، وأغمض عينيه من خلف النظارة الطبية، وهمس بنبرة يشوبها أسي:

ـ أنت تعيدين أياماً لا أحبها..

اكتفت بالنظر إليه، ثم قالت:

ـ ربما أنت الوحيد الذي عاش ما حدث..

وهو يهز رأسه:

ـ في مصر.. ربما..

ـ هل نبدأ الآن؟

ـ ماذا؟

ـ التسجيل..

ـ المفروض أن أوافق أولاً..

واعتدل في جلسته:

ـ إن وافقت فستكون لقاءاتنا في غير أوقات العيادة..

وقال في لهجة باترة:

ـ عصر الغد.. في الرابعة والنصف عصراً..

أدركت أنه خصص لها من الوقت ساعة ونصفاً. يبدأ تقاطر المرضى في السادسة.

- ٣ -

زيارات المصادفة إلي عيادة الدكتور فارتان لقاءات أحرص علي مواعيـدها، وأنتظرهـا. لا أدري - علي وجه التحديد - ماذا يجذبني للقائها؟

لم أستطع أن أبعد عن مخيلتي ابتسامتها الطفولية، وعينيها الـصافيتي الزرقـة، وشـفتيها الـرقيقتين، وخصلة الشعر التي تلفها حول إصبعها وهي تتحدث.

قلت لفيصل مصيلحي:

- التقيت بفتاة أشعر أنها ستدخل حياتي..

- لماذا؟

- مجرد إحساس قلت من خلاله لنفسي إن تعرفي إلي هذه الفتاة لن يكون عابراً..

- لم أعرف أنك ممن يبحثون عن صداقة البنات..

- ولا أنا أعرف.

ورفعت كتفي:

- فتاة جميلة.. استلطفتها.

- أنا لا أصدق حكاية الحب من أول نظرة.

- لم أقل إني أحببتها. قلت إني شعرت بأنها ستدخل حياتي.

- بمعني؟

لم يشغلني إن كان ما شعرت به هو الحب من أول نظرة - كما قال فيصل بلهجته الـساخرة -. لـم يشغلني حتي الاندفاع إلي فتاة لم أعرفها قبل لقائنا بعيادة الدكتور جارو، ولا عرفت سوي ما قالته عن اسمها وعملها. هي لم تجتذبني لجمالها - لا أنكره - فقط، وإنما لأشياء أخري يصعب أن أحددها.

أعدت القول في هيئة المدافع:

- أتمني أن تدخل حياتي. صداقة.. معرفة.. الحب ليس شرطاً.

وهو يبدي الحيرة:

- كلام لا أفهمه!

ثم وشي صوته بلهجة وعظية:

- لا تفعل ما يغضب ا !

كانت لي علاقات، انتهت أو استمرت. إخلاص عبد الفتاح زميلتي في قسم اللغة العربية. واربت الباب، فدخلت. جارة الشقة المقابلة، أومأت بابتسامتها الواسعة، ثم بإشارتها. فطنت - عقب عودتي من لقائها بـأول شاطئ الأنفوشي، أنها ليست فتاتي. ترددت مرة وحيدة علي كوم بكير. تقيأت في مدخل الغرفـة المبهرجـة، الكابية، وتركت الحي بلا عودة..

بدت لي نورا شيئاً مختلفاً..

أدركت أنها ليست مجرد هبة هواء منعشة، تغيب في اللحظة التالية. لم أكن التقيت بها من قبل، لكنني توقعت، تمنيت، أن ألتقي بها، وأن تنشأ بيننا صلة لا تنتهي. كنت أتمني أن أجد الفرصة لنشر ما أقتنع به في الصحف، وأجد الفتاة التي رسمها تصوري. حياتي حلم أُفُقه اللحظة التي سنلتقي فيها. لم تكن هي الملامح نفسها التي رسمها الخيال، ولا حدست إن كانت مصرية، أو تنتمي إلي كوزموباليتينية المدينة. بدت تجسيداً لهلامية الحلم دون ملامح محددة. ملأت حضورنا، حضوري. لم تعد السياسة عالمي الوحيد. عالمي الجديد، الجميل، يتألق بالسحر والأحلام وقطر الندي..

واجهني فيصل بنظرة متسائلة:

- تعرفت إليها؟

- ليس تماماً. قابلتها في عيادة الدكتور جارو. لم أتوقع زيارتها، ولا عرفت إلا أنها تعد رسالة جامعية عن مذابح الأرمن في أثناء الحرب العالمية الأولي وبعدها..

أطلق من أنفه ضحكة قصيرة:

- حب من أول نظرة..

- لا أستطيع أن أسمي ما أشعر به حباً..

وحاولت مداراة انفعالي في لهجة هادئة:

- لم أتبادل معها كلمة واحدة..

- إذن فهو حب طياري؟

- استأذنت في الانصراف.. لكن الدكتور استبقاني..

وانعكس تأثري في تهدج صوتي:

- وهي تلقي بالتحية في انصرافها، أدركت أني سأنتظرها كل يوم في الموعد الذي حدده لها الدكتور جارو..

- إن لم يكن هذا هو الحب.. فماذا يكون؟

- سمه اهتماماً أو إعجاباً.. هي أرمنية..

قاطعني:

- أرمنية؟!

تجاهلت المعني الذي يقصده:

- مصرية من أبوين أرمنيين..

لم تعد تشغلني ذكريات الدكتور جارو، بقدر ما يشغلني اقتناص الفرصة لألفت نظر نورا. ترنو بنظراتها ناحيتي. كنت أفتعل أية مناسبة للتوجه بالكلام إليها. أبدي ملاحظة، أو أوجه سؤالاً. مجرد أن أتحدث إليها، أجذب اهتمامها. لم أفكر في مدي العلاقة التي يمكن أن تنشأ بيني وبينها. لم أسأل نفسي: ماذا بعد؟ ولا دار ببالي إن كانت ستقوم بيني وبينها علاقة من أي نوع. مجرد أن ألفت انتباهها. تجيب، أو تعيد

السؤال. ترد، وتناقشني. توافق، وتخالف، وتبدي الملاحظات. لكنها تظل في انشغالها بالحديث مع الـدكتور جارو. أتوقع، أتمني، أن تلحظ نظرات الود المتطلعة إلي عينيها. يعروني إحساس بطل الخرافة الذي غمـر بالماء حتي ذقنه، بينما تدلت أغصان الفاكهة فوق رأسه. كلما حاول أن يشرب، أو يلـتقط الفاكهـة، لحقـه الإخفاق، فظل بلا طعام ولا شراب..

***

أخرجت جهاز تسجيل من حقيبتها. وضعته علي الطاولة الصغيرة أمام المكتب، تفصل بـين مقعـدين جلس علي أحدهما الدكتور جارو، وجلست الفتاة في مواجهته. كنت علي المقعد المواجه لباب الصالة..

ناوشني الحرج . لم يكن يتحدث عن المترددين علي العيادة، لا مجرد إشارة إلي حالـة تـولي عـلاج صاحبها..

ـ هل أنتظر في الصالة؟

وهو يربت ركبتي:

ـ يهمني أن تعرف ما حدث..

واتجه إليها بنظرة مثقلة بالحزن:

ـ ما جري أستعيده كومضات: الأسواق. الميادين. أبراج الكنـائس. زخـات الرصـاص والقـذائف. الصراخ والقلق والخوف. الجرحي. القتلي. الصحراء. المنافي. الخيام. قمم الجبال. القمل وحمي التيفـوس. النظرات الرافضة والمشفقة والتي تقطر حقداً. قطاع الطرق. مسلحو العشائر. طفل في حوالي العاشرة يتلفت في حيرة وهو يبكي. امرأة تلقي طفلها علي الأرض وهي تصرخ، وتجري. طوابير متلاصقة، ممزقة الثياب، حافية الأقدام، يدفعها الجنود الأتراك. ساق مبتورة غطاها السواد. جثث تفحمت من حرارة الـشمس. عظـام متيبسة تتخلل الرماد، تشي بالاحتراق الذي التهم أصحابها. حفر موت ومقابر جماعية.

تململت نورا في جلستها:

ـ هل نبدأ من البداية؟

قال:

ـ حتي الآن لا أصدق أن ما حدث قد حدث بالفعل. لا أنسي الأثاث والملابس والأمتعة وكل مـا فـي البيوت والدكاكين والمخازن، وضعت في ساحات مسورة، وعرضت للبيع. اقتـصر البيـع علـي الأتـراك والأكراد والعرب. لم يعد الأرمن يملكون أي شئ. حتي الجوع والعطش لا يعرفون متي ولا كيـف ينتهـي. حتي أسماء الأماكن الأرمنية، القليلة، محتها حكومة الأتراك. استبدلت بها أسماء تركية لا تأذن حتي للأرمن بنطقها..

واتجه الرجل ناحيتي بالنظرة الحزينة:

ـ قبل أن تولد مضي العثمانيون عن العالم العربي، بعد احتلال أربعمائة سنة..

أردف وهو يضغط علي يدي:

ـ أتصور أنك قرأت عن جرائم العثمانيين.. جرائم الإبادة في أرمينية أشد بشاعة. لم يكن ما حدث مجرد إبادة شعب، قتل وتشريد مليون ونصف مليون مواطن من أبناء أرمينية، نصفهم من الأطفال. المجلدات والكتب العلمية تمزقت إلي أوراق، غلف فيها الجبن والتمر وبذور الثمر. المخطوطات والمنمنمات الأثرية والرموز المعمارية، وكل ما يتصل بالحضارة الأرمنية، بداية من ثلاثة آلاف سنة.. ذلك كله تعرض للدمار والتشويه. حتي الصلبان نزعت من جدران الكنائس، وسلب ما بها من أثاث وأيقونات، وحولت إلي مخازن.

واغتصب ضحكة باهتة:

ـ حاولوا حل قضية الأرمن بإبادتهم!..

ثم علا صوته كالمتذكر:

ـ لن تعود أرمينية إلي أهلها ما لم يحرصوا علي لغتهم وثقافتهم وروحهم..

تحدث عن انشغاله بألا يذوب الأرمن في المجتمعات التي يعيشون فيها. لا يواجهون الذوبان والضياع. انصهر الآلاف من الأرمن في مجتمعات لا يريدون الإقامة فيها، وترفضهم. لم يكونوا مخيرين في انصهارهم داخل بني اجتماعية يختلفون عنها تماماً.

عاودت نورا تحركها المتململ:

ـ هل نبدأ من البداية؟

ألمح في عينيه أنه قد انعزل عن كل ما حوله، وعن العالم، وأنه ينظر إلي ما يراه وحده. ربما ما استمعت إليه من صور الحياة في بلاده: البشر والأسواق والكنائس والجبال والأودية والأنهار والقمع والاضطهاد والترحيلات الجبرية والمذابح..

سكت لحظة. فطنت ـ لما بدأ في التحدث ـ إلي أنه يحاول السيطرة علي انفعاله:

ـ ما بين عامي ١٨٩٤ ـ ١٨٩٦ تواصلت مذابح الأكراد والجنود الباشبوزق ـ تسمية تركية ـ بأمر من السلطان عبد الحميد، ضد شعب الأرمن. ظلت المذابح عاماً كاملاً، مات خلالها ٣٠٠ ألف شخص من القتل والجوع والعطش والإعياء والأمراض والبرد، وهاجر أكثر من مائة ألف إلي البلاد العربية وروسيا والبلقان وأوروبا وأمريكا. لم يكن أمام الأرمن إلا أن يحملوا السلاح. تكونت الجماعات السرية، وتعددت عمليات الاغتيال وتدمير المنشئات التركية..

ثم اتخذ قرار إبادة الأرمن في الدولة العثمانية ـ سراً ـ في فبراير ١٩١٥. لجأ العثمانيون إلي الإبادة العرقية ليحققوا القومية الطورانية، قومية الأتراك. جعلوا هدفهم " قومية واحدة وجنس واحد ". كان التخلص من الأرمن ضرورة ـ في تقديرهم ـ لقيام الدولة الطورانية. لن تجد أوروبا ما تتحدث عنه بعد أن تزال عقبة الأرمن بين الأتراك العثمانيين والشعوب التركية فيما وراء القوقاز وبحر قزوين.

تلقي الولاة والضباط الأتراك الأوامر شفاهة أو بالبرق. أوكلت المهمة إلي رجال الدرك والعصابات السرية، حتي يبدو الجيش بعيداً. عادت المذابح في إبريل ١٩١٥. وامتدت حتي عام ١٩١٨، وشملت كل أرجاء الإمبراطورية العثمانية.

بدأت المذابح بالمثقفين في مساء ٢٤ إبريل ١٩١٥. اعتقل الأتراك أكثر من مائتي أرمني ما بين أدباء وشعراء وصحفيين ومدرسين ومحامين وأعضاء في البرلمان. اقتيدوا - في الليل - بعيداً عن بيوتهم، وأعدموا، وأعدم ستمائة آخرون في الأشهر التالية..

أخليت بيوت الأرمن، وصودر الأثاث، وبيع النساء والأطفال في المزاد العلني، أو وهبوا إلي العائلات التركية وعصابات الأكراد. أزيلت معالم الآثار التاريخية التي تدل علي قومية الأرمن. علي أنه كان في تلك البلاد من يسمون بالأرمن..

دفعنا إلي الرحيل، النفي الإجباري والتشريد..

كان الرحيل سيراً علي الأقدام. وكنا - أحياناً - نجر العربات. لم يكن معنا إلا القليل مما سمح لنا بحمله. امتلأت الأعين بالخوف والدمع والموت..

بدأ الضياع، الذوبان، التلاشي، منذ الأيام الأولي لعمليات النفي. القتل والاغتصاب وهجمات العصابات ومواجهة الصحراء والشمس والجوع والعطش. أكل النازحون الكلأ والميتة والجلود المسلوقة. أقدموا - أحياناً علي أكل لحم البشر. استباح الجنود الأتراك أعراض النساء، ودمروا، وقتلوا. من تروق في عين الجنود يقتادونها إلي ما وراء أكمات الحجارة والصخور والتلال الصغيرة. يغيبون بها، دقائق تطول أو تقصر. ثم يترامي صوت إطلاق الرصاص. نعرف أنها قتلت بعد أن اعتدي الجنود عليها. وكانوا يربطون الأم وأطفالها بحبل، ويلقون بهم من قمة الجبل، ترتطم بالأرض قطعاً من اللحم المفتت. ربما ألقوا بالبعض أحياء في النهر. من يحاول الطفو تلحق رأسه رصاصة، فيغوص في الماء. الجثة التي تطفو علي السطح، أو تقذفها الأمواج إلي الشاطئ، تتخطفها الكلاب أو النسور. حصل الجنود علي رخصة بفعل كل ما يريدون.

أبيد حوالي نصف السكان الأرمن، وهرب الباقون. صارت المذابح الأرمنية ملمحاً في سياسة العثمانيين. تكررت، فلم تعد تثير الغضب، ولا الاستياء، ولا حتي مجرد المناقشة. لم يبق من مليوني أرمني - داخل الإمبراطورية العثمانية - سوي مائة وعشرين ألفاً فقط. في أول يناير ١٩١٧، أعلنت الحكومة العثمانية نهاية القضية الأرمنية، وأنه لم يعد للأرمن وجود في دولة الخلافة..

قالت نورا وهي تدير خصلة الشعر المتهدلة علي كتفها..

- أحتاج إلي معلومات كثيرة..

رفع رأسه ببطء، واتجه إليها بنظرة مثقلة بالحزن:

- ضمت المعسكرات ١٣٠ ألف أرمني. امتدت علي طول الطرق، وعلي ضفاف نهر الفرات حول المدن الصغيرة: مسكنة والرقة والزيارة والسبخة ودير الزور. أكثر من ألف كيلو متراً قطعها الفارون سيراً علي الأقدام. ابتلعت الصحراء الآلاف. من لاذوا بالكهوف، حاصرهم الجنود بالبترول، وأشعلوا النيران. تضاءل الآلاف إلي مئات، والمئات إلي عشرات. مجرد أشباح كائنات بشرية، تبحث عن جرعة ماء، أو كسرة خبز. ما يحفظ عليها الحياة. بدا الوجود بلا معني، وأننا نعاني موتاً بطيئاً، مؤكداً.

لم نعد نملك أي شئ. لم يعد بحوزتنا أي شئ. حتي الثياب علي الأجساد، انتزعوا ما راق في أعيـنهم منها. أجريت امتحاناً في حلب أثبت من خلاله أني طبيب. أجرينا الكثير من عمليات البتـر لأيـدي وأقـدام وسيقان، بلا معدات طبية ولا مسكنات ولا أدوية

غاية ما كنا نتمناه هو النجاة بأرواحنا. الفرار من الرصاص، والدفن أحياء، والجوع، والموت عطـشاً. يظهر عساكر الأتراك. يطلقون رصاص بنادقهم، فينتهي كل شئ. جثث الموتي الملقاة علي امتداد الطـرق، حتي الخلوات والطرق الجانبية، تناثرت فيها بقايا الجثث، وحومت الكواسر فوقها.

لم أكن أعاني الخوف علي حياتي فقط. كنت أعاني التنقل ـ بالخوف ـ بين الفارين. أداوي المرضي، أسعف الجرحي، أوصي بدفن من يأخذهم الموت. اختلطت مشاعري، وتشابكت. لم أعد أفرق بين مـا فـي داخلي، وما ينعكس من معاناة الفارين..

ضرب المكتب أمامه بقبضة يده:

ـ الغريب أن كل تلك المذابح هي الجائزة لوقوف الأرمن إلي جانب تركيا في حرب البلقان!

قالت في لهجة مشفقة:

ـ سأعتبر ما في التسجيل خطوطاً عريضة، نتناول تفصيلاتها في الجلسات التالية.

وضعت الكاسيت في حقيبتها، ونهضت. حملت الحقيبة علي كتفها، وهمست: سلام. ومضت ناحية باب الشقة..

ـ ٤ ـ

اعتدت رؤيتها في العيادة. أنست إليها مثلما أنست إلي الطبيب. تصيخ السمع ـ مثلي ـ لحكايات العجوز عن المذابح التي عاشها وهو يحاول الفرار بحياته. يسيطر بحديثه علينا، لا نتململ، أو نلقي أسئلة. نظل صامتين. نكتفي بالإصغاء، حتي ينهي ما يحكيه، فنبدأ في السؤال عن الغامض والمجهول..

تحدث عن بوصلة في داخله، اتجاهها الوحيد ليس الشمال الجغرافي في إطلاقه، لكنها تتجه إلي أرمينية وحدها، الملامح الواضحة والشاحبة والغائبة. لا معني لحياة الإنسان بعيداً عن الأمكنة التي ألفها: البشر والبنايات والمناخ. والمعتقدات والعادات والتقاليد.

يقطع كلماته بتنهدات، أو بنظرات صامتة، متأملة، لأفق الميناء الشرقية. يبدو ـ في شروده ـ أنه في حوار دائم مع نفسه. ربما انعكست مشاعره ـ أثناء الحوار ـ في بسمة، أو تكشيرة:

ـ مضي العمر وأنا أعد نفسي للعودة إلي أرمينية، تسرب دون أن أشعر..

وشي صوتها بنبرة مجاملة:

ـ متعك ا بطول العمر..

كانا يتحدثان بالعربية، وإن ضمنا كلماتهما مفردات بلغة لا أفهمها. أخمن أنها الأرمنية. مرة وحيدة تحدثا باللغة التي لا أعرفها. غاب علي ملامحه انفعال. وكانت تصغي باهتمام واضح. أنظر إليها، أتأملها، أدقق في الشعر المنسدل، والعينين الزرقاوين، الواسعتين، والأنف الدقيق، والشفتين كورقتي وردة. يختلط الزمان والمكان. يبعث الصوت الطفل راحة في نفسي. أتجاهل نظرة العجوز الفاهمة..

أطلت النظر إليها، أنتظر التفاتة قد لا تأتي. لاحَظت اتجاه نظرتي، فأحسست بالحرج. تشاغلت بالتطلع إلي قارب يصيد المياس في المينا الشرقية..

تنبهت علي ارتفاع صوتها:

ـ جئت إلي مصر إذن فراراً من مذابح الأتراك ضد الأرمن؟..

قال الدكتور جارو:

ـ لعلي أحببت أن أعمل في ظروف مواتية..

ونزع نظارته، وجري علي عينه بظهر إصبعه:

ـ كان من الصعب أن أعمل في ظروف توتر دائمة..

أعاد النظارة إلي موضعها، واتجه إليها بنظرة حزينة:

ـ سألت عن البداية. ما حدث اختلطت فيه البداية والنهاية، اختلط فيه كل شيء، لكنني سأحاول..

واعتدل في جلسته:

ـ كل الشواهد والإجراءات وأخبار الصحف دلت علي أن إبادة الأرمن علي أيدي قوات الأتراك كان مخططاً لها من قبل، من قبل أن يوجد تبرير العنف الذي اتخذ ذريعة للإبادة. كانوا يخشون فكرة حصول الأرمن علي الحكم الذاتي أو الاستقلال. لو حدث فسيفقدون أقاليم مهمة من أراضي الدولة العثمانية، تشمل

أجزاء من اليونان وصربيا وبلغاريا. كتبوا في صحفهم: يجب أن يباد الأرمن. لقد زاد عددهم إلي درجة أصبحوا معها يمثلون خطورة علي العرق التركي. الإبادة هي العلاج الوحيد.

كان قيام الحرب العالمية الأولي فرصة لتنفيذ خطة إبادة الأرمن في الدولة العثمانية. أذكر يوم الثاني من يناير ١٩١٥، في بلدة أورمية الفارسية والمناطق المحيطة بها. انسحب الجيش الروسي المرابط في المنطقة من سنة ١٩١٠، وهاجر الأرمن إلي داخل فارس. من تأخر رحيله واجه المذابح المدبرة بواسطة قوات الأتراك والأكراد التي دخلت المنطقة بعد انسحاب الروس. توالت - بعد ذلك - عمليات التصفية، حتي علي المستوي الوظيفي. أقيل موظفو الدولة الأرمن من وظائفهم، وجرد العسكريون الأرمن في الجيش العثماني من أسلحتهم ورتبهم، وشكلت طوابير عمل من الجنود الأرمن، وبدأت عمليات مصادرة واسعة للأموال الأرمنية، ثم اتخذ قرار بإبادة الأرمن، والتخلص من القضية الأرمنية. وتكونت بالفعل لجنة ثلاثية للإشراف علي تنفيذ برنامج الإبادة. صدرت الأوامر بإبادة كل الذكور الأرمن من سن اثنتي عشرة سنة.

دفعوا الأكراد إلي قتل الأرمن فلا يحدث أي تقارب بينهما، ويظل العداء قائماً. لم يجد الجنود الأكراد في هجومهم علي البنادر الصغيرة والقري سوي مقاومة ضعيفة، بوسائل بدائية. كان أكثر الرجال القادرين مجندين في جيش السلطان. جرت مذابح جماعية مرتبة، أبيد فيها البشر، وأزيلت القري. لم يبلغ حلب والموصل سوي خمسين ألفاً من حوالي سبعمائة وخمسين ألفاً في بداية رحلة النفي..

أذكر من الولايات التي تنقلنا بينها: ديار بكر، وان، بتليس، أرضروم، خربوط، بورصة، أضنة، موش. تصور قادة تركيا أن الأرمن في ترحيلهم إلي البلاد العربية - عبر الصحاري والجبال - سيجدون ظروفاً دينية وعرقية معادية، ويواصل العرب مهمة إبادة الأرمن. لكن ذلك لم يحدث. قدم العرب العون إلي الآلاف من الأرمن الذين طاردهم الموت، وواجهوا المجهول..

قتل الكثيرون في صحراء " مارات "، علي بعد كيلو مترات من دير الزور..

طالعتنا دير الزور - بعد أيام طويلة - فيما يشبه التيه. المدينة تقع علي الضفة اليسري لنهر الفرات. يصلها جسر بالجزيرة الصغيرة في وسط النهر. أذكر الأشجار والمزروعات التي كانت تغطي مساحات الرؤية في الجزيرة. تحددت إقامتنا - في الأشهر الأولي - داخل الجزيرة. لا فرصة للفرار. يحيط الجنود العثمانيون بالمناطق المقابلة. مراكز حراسة، تقف علي الجسر الموصل بين دير الزور والجزيرة، والجسر الآخر الموصل بين الجزيرة وأرض ما بين النهرين. كان العرب يعبرون الجسرين في حرية، دون أسئلة، ولا تفتيش. أما الأرمن فلابد من إبراز ما يحملون من وثائق، وإخضاعهم للمراقبة والتفتيش..

لاحظت نورا أني بدأت أتململ في جلستي، وهو يعيد ما سبق أن رواه. نورا تنصت - أو تتظاهر بالانصات - وترنو ناحيتي بنظرة جانبية، مبتسمة.

قال الدكتور جارو:

- تركت تركيا أعداداً من الأرمن يفرون إلي البلاد العربية. أوعزت للعرب بقتلهم، فرفضوا. وهو ما يحسبه الأرمن للعرب..

ثم وهو ينقر علي المكتب بسبابته:

- ما قدمه العرب من مساعدات للأرمن كان ينطوي علي مجازفة غيـر محـسوبة. رفـض الـولاة والرؤساء والموظفون ذوو الأصول العربية أن ينفذوا الأوامر الصريحة بإبادة الأرمن المرحلين، وواجهـوا عقوبات بلغت حد الإعدام. لم ينفذ الوالي العربي في دير الزور ما تلقاه من أوامر عثمانية. زاد فشيد مبنـي لحوالي ألف من أطفال الأرمن، واستضافهم - لفترة - في دير الزور - قبل أن يطرد من منـصبه. كنـت واحداً - لك أن تعتبرني كذلك - من المندسين وسط هؤلاء الأطفال..

في سبتمبر ١٩١٥ تمكنت السفن الإنجليزية والفرنسية الموجودة في البحر المتوسـط مـن نقـل آلاف الأرمن إلي الإسكندرية وبور سعيد. كانت الحياة قاسية. الطعام يصل بصعوبة، لا يزيد عـن خبـز وجـبن وزيتون وبصل ولبن للأطفال. كنت واحداً ممن يعانون الجـوع والمـرض والإرهـاق والبـرد والتيفـوس والظروف القاسية..

أقمت ما يقرب من الشهر في خيمة، ضمن قري من الخيـام، خصـصت للمهـاجرين الأرمـن فـي الإسكندرية. جاوز عملي كطبيب مجرد الإقامة في خيمة. صرت واحداً من أطباء الصليب الأحمر الأرمني، إلي جانب أطباء وممرضات من جنسيات مختلفة. أفادتني مهنتي في الخروج إلي المدينة. لم ألجأ إلي القفـز فوق الأسلاك الشائكة، ولا إلي التسلل في ظلمة الليل..

أضاف في نبرة تأكيد:

- لولا إقامتي القصيرة في دير الزور، ما استطعت التنقل مع أعداد ظلت في تناقص، إلي حلب، ومنها إلي الإسكندرية، لأفتتح هذه العيادة..

وتنهد:

- هذا اختصار لرحلة طويلة، قاسية، لا أتصور كيف عشتها.

وأشاح بيده:

- ذاك زمن قديم. رويت ما احتفظت به ذاكرتي..

قالت نورا:

- ألم تنس بعض الوقائع؟

مط شفتيه وهز رأسه:

- لا أظن!

رنوت إلي العجوز. آلمتني نظرة مفعمة بالحزن. أدركت أن الرجل يعاني..

وهي تدير خصلة الشعر بإصبعها:

- لماذا يرتكب الناس هذه الجرائم؟

واتجهت إليه بملامح متسائلة:

- هل اعتبر الأرمن مذابح العثمانيين قدراً؟

قال جارو:

ـ مشكلة الحركة القومية الأرمنية أنها لم تكن موحدة. لم يحدث تنظيم يحاول منع عمليات العنف والذبح التي راح ضحيتها آلاف الأرمن..

ولجأ إلي التعبير بيديه:

ـ قلبت الحرب العالمية الأولي كل الحسابات، وأحدثت ارتباكات في صفوف الأرمن لم يكونوا قد أعدوا أنفسهم لها..

ثم وهو يلوح بسبابته:

ـ مع ذلك، دفع جميع الذين كانوا وراء المذابح حياتهم بواسطة جماعة الطاشناق الأرمنية. أفلح فدائيو الجماعة في اغتيالهم قبل مرور سبع سنوات علي مذابح ١٩١٥

واكتسي وجهه إمارات جدية، وقال كمن يحسم أمراً:

ـ منذ أواخر القرن التاسع عشر إلي أوائل هذا القرن، ذبح ما يقرب من المليون نسمة. القرار الذي اتخذه كل الناجين من المذبحة، وإن لم يعلنه أحد، هو ألا ننسي ما حدث في تلك الأيام. نحترم ذكري من قتلوا. قد ينسي العالم، لكن ليس من حقنا، ولا واجبنا، أن ننسي.

لم يتحدث عن أسرته: أبويه، زوجته وأولاده، إن كان قد تزوج وأنجب. هو الدكتور جارو فارتان، المواطن الأرمني. ثمة شيء يغيب عن وجدانه منذ أجبر علي الرحيل. ما حدث قطع الفرع بالجذور ، فقد الصلة بمن ينتمي إليهم، وإن لم يقتصر حنينه إلي المعاني المطلقة. من المستحيل أن تترك وطنك، وتتخلي عن البيئة التي ألفتها، وأحببتها، إلي عالم تجهله، ولا تعرف عن ناسه، ولا عنه، شيئاً. من المستحيل أن تختلق لنفسك وطناً. الوطن حيث نشأت، وكونت الصداقات، وعايشت الذكريات، وخضت التجارب الحلوة والمرة، والمغامرات الحسية، ونسجت العلاقات، وألفت الأمكنة، هي ـ في الذهن ـ والوجدان ـ حتي لو أغمض الإنسان عينيه..

العيادة هي حدود صداقتنا. حدود العالم الذي تعيش فيه هذه الصداقة. في حياته مناطق ومساحات أغلق أبوابها جيداً، أحاطها بأسوار لا يأذن لأحد بالقفز فوقها. لا لقاءات خارج الشقة، أو البيت. لم يشر حتي إلي مكان إقامته، بعيداً عن العيادة. التقطت من كلماته أسماء: ترام الرمل، الإبراهيمية، طريق الكورنيش، مدرسة يوغوصيان الأرمنية، نادي سبورتنج، مصلحة الجوازات، التريانون.. لم تشكل قسمات واضحة فيسهل تصورها.

حين أبديت ملاحظة علي اتساخ البالطو الأبيض، تحدثت نورا ـ بعفوية ـ عن تعدد البلاطي البيضاء النظيفة، المكوية، في دولاب حجرة نومه. أدركت أنه يستقبلها في بيته، يخصها بما لا أعرفه، ولا أشار إليه في جلساتنا. لم أناقش الأمر ـ بيني وبين نفسي ـ ولا خمنت أفقاً مثيراً.

داعبته بالقول:

ـ أتصور أن حياتك موزعة بين البيت والعيادة، أو في الطريق بينهما..

سرح في هيئة من يتأمل معني الكلمات، ثم أومأ موافقاً..

أطالت نورا التحدث عن زيارة العجوز لكنيسة الأرمن الكاثوليك. كانت زيارته الأولي. تناثرت كلمات: المذبح والتراتيل والأرغن والزيت المقدس والمناولة والشموع والتراتيل..

أرجع العجوز موافقته علي اقتراح نورا بزيارة الكنيسة إلي تقدمه في العمر. لا بأس من أداء الطقـوس الدينية، حتي لو كانت احتمالات الحساب في الآخرة ضئيلة.

***

لاحظت نورا ما تعمدته، وإن تصورت أني أسترق النظر إليها. راحت ترمقني بطرف عينها، كأنها تهم بإمساك اللحظة.

قلت، واليأس يكاد يغلبني لأثير اهتمامها:

ـ هل حصلت علي الليسانس من جامعة فاروق الأول.. أو من فرع جامعة القائد إبراهيم؟

قالت:

ـ جامعة فاروق الأول أنشئت في ١٩٤٢. أعتز بأني سأكون من أولي الحاصلات علي الماجستير..

وأدارت خصلة الشعر بإصبعها:

ـ إذا كنت خريجة أول دفعة في قسم التاريخ بآداب جامعة فاروق الأول، فإني الآن أول طالبة دراسات عليا..

فطنت ـ وأنا أسترق النظر إلي وجهها ـ إلي الشامة الصغيرة أسفل ذقنها..

شغلني ـ في اللحظة التالية ـ تدبير لقائي بها، بعيداً عن عيادة الدكتور جارو. أضع في عيني نظـرة، تشي بصمتها أني أريد أن أقول لها شيئاً. أصارحها بما أعجز عن البوح به..

متي؟ وكيف؟ وماذا لو نقلت إلي العجوز ما أعرضه عليها؟ هل تكون النتيجة ابتعادي عن حياة جارو، وعن حياتها؟

- ٥ -

تعددت زياراتي للعيادة. لا لمرض، ولا حتي للقاء الدكتور جارو، وإنما لرؤية نورا. الجلـوس إليهـا، ومناقشتها. يغيب الموضوع المحدد، القضية المحددة. مجرد أن أجلس إليها. أتأمل الوجه الطفولي، والبـشرة الناعمة، والعينين الزرقاوين، الواسعتين، اجتذبتني بما لم أستطع تحديده. شعور غامض أخفقت في تفـسيره، وإن سيطر علي بما يصعب مغالبته. تختلط في ذهني بأفكار غير محددة، بما يشبه التصورات أو الأحـلام. ورابت باباً توقعت وراءه ما هو أشد جمالاً من السحر..

حاولت أن أتماسك، فلا أفضح مشاعري نحوها. أخشي أن يفطن العجوز، أو تزجرني. ربما لا أدخـل العيادة ثانية..

أجلس في الصالة..

المينا الشرقية - من ورائي - في مدي الأفق. عيناي مسمرتان علي باب العيادة المـوارب. أتوقـع، أنتظر، قدومها. تطالعني بقامتها الطويلة، والشعر المنسدل، والأنف الدقيق، والشفتين كورقتي وردة، والشامة الصغيرة أسفل ذقنها، والغمازتين المبتسمتين مع ابتسامتها الدائمة..

أتجاهل نظرة الدكتور جارو، تأخذني اللهفة من ثرثرته - هي في لحظات الانتظار مجـرد ثرثـرة - بوقع أقدام علي السلم. أنسي حتي وجود العجوز. حتي هزة الرأس دلالة المتابعة، أنساها. تدعوني بابتسامتها المرحبة، ويظل الدكتور جارو علي صمته. أقترب منه، وإن لم أجلس علي أحد الكراسي المصفوفة أمامـه. أتعمد أن تكون جلستي بحيث تراني إذا تحدثت معه. لم أستطع أن أتبين الجدار غير المرئي الذي يفصل بيننا، ويحول دون أن أعترف لها بمشاعري. أدركت أني في حاجة إلي جرأة، لا أمتلكها..

انطبع - في ذاكرتي - امتداد البنايات من زاوية الحجرة إلي المينا الشرقية: الشرفات، مناشر الغسيل، النوافذ، الوجوه المطلة، المناور الفاصلة، الأفاريز، المقرنصات، أسلاك التليفون، لافتات العيـادات ومكاتـب المحامين، النشع المتناثر في الواجهات..

لاحظت حرصها علي تحاشي النظر ناحية عيني اللتين تمتلئان من قسماتها، وتحملان مشاعري. شغلني الإفصاح - أو حتي التلميح - بمشاعري نحوها. حاولت أن أنبهها كي تلتفت نحوي بعينيها الواسعتين. أتأمل بحرهما الصافي الزرقة وأنا أتكلم. أسأل، وأجيب، وأناقش، وأبدي الملاحظات. تفاجئني بنظرة وأنـا أتأمـل ملامحها. أغالب الارتباك. أتظاهر بالشرود، أو بالنظر إلي شيء غير محدد..

رددت نفسي عن محاولة مد أصابعي ولمس يدها المسترخية علي الطاولة. أتمني لو أني وضعت يـدي علي بشرتها الناعمة، لو أني تحسستها. أدرك الحاجز غير المرئي الذي حرصت علي أن تضعه بيننا.

كان العجوز - إذا تحدثت - يتظاهر بمتابعتي. يهز رأسه دلالة المتابعة بالفعل، لكن عينيه كانتا دائمتي الالتفات نحو الفتاة. وكانت - إذا جاءت سيرتها في كلام بيني وبينه - داخل نبرة صـوته تهـدج، وغلبـه الانفعال..

لم أجد في نظرات الطبيب المتسللة إليها ما يمنعني من إهمال نمو الإحساس بالحياة في داخلي. إذا كان يحبها، فهو لا يملك الإطار الذي يضع فيه حبه. لا رفقة، ولا زواج، ولا حتي علاقة عابرة..

قال لي وهو يطل علي صيادي المياس في المينا الشرقية:

ـ الشاب لا يحتاج إلا إلي امرأة ليفرغ شهوته..

ثم وهو يتأمل البقع البنية المتناثرة في ظهر يده:

ـ أما من هم في مثل سني فإن طقوس ما قبل العلاقة تأخذ أضعاف الوقت الذي تأخذه العلاقة نفسها..

ورفع رأسه ببطء:

ـ كنت أعاني مرضاً وحيداً هو الحنين إلي الوطن. تتقاسم حياتي الآن أمراض أخري فرضتها الشيخوخة!

لم تكن تضايقه المداعبات. يفهم الدعابة، ويستجيب لها. يرد عليها ببديهة حاضرة، يظهر حزناً صـامتاً إذا لامست الدعابة حياته الخاصة. يحيط نفسه بسور غير مرئي يصعب اختراقه. لا أستطيع أن أتعرف فـي عينيه إلي شيء يخفيه، ولا أن أقرأ مشاعره، وإن أدركت أن وراء الشخصية الغامضة، مخلـوق عـاطفي، وطيب القلب.

***

استأذنته في أن يعيد ما رواه في الجلسة السابقة. تبينت ـ حين بدأت في إفراغ الشريط ـ أنها نـسيت تشغيل جهاز الكاسيت..

وضع في راحة يده حبتين من علبة الدواء البيضاء المستديرة. ثم دفعهما في فمه، وأتبعهما بجرعة ماء:

ـ الخوف ـ وحده ـ هو الذي منعني من العودة إلي أرمينية بعد قيام الجمهورية الأولي في ٢٨ مايو ١٩١٨. اقتصرت التسمية علي العاصمة يريفان والقري المحيطة. توقعت أن يكون للأحداث امتداداتها. لكـن أرمينية ظلت هناك. أحيا بتوقع العودة إليها. أنت تجدين في أسرتك، عائلتك، حائط الاطمئنـان، وأن العـودة إليها متاحة وممكنة. يختلف الأمر لو أن الوطن غائب، والعائلة، الأسرة، لا يدري المرء أين تحيا، إن كانـت علي قيد الحياة، ولا يدري كيف يصل إليها..

وتعكرت ملامح وجهه:

ـ ظلت في ذاكرتي جثث القتلي الطافية فوق مياه الفرات. اقتحم داخلي ربما بما هو أكبر من الخوف. أتصور نفسي في الأجساد المنتفخة، المشوهة الملامح..

تدخلت بالقول:

ـ هل ظللت خائفاً كل تلك السنوات؟

قال:

ـ تحولت الجمهورية الأرمينية الأولي إلي الشيوعية. انضمت إلي الاتحاد السوفيتي. صادرت السياسة حقوق الأرمن عشرات السنين..

ـ أعرف أن الآلاف عادوا فيما بعد..

ـ هذا صحيح.. لما أقام الاتحاد السوفيتي علاقاته الديبلوماسية مع البلاد العربية، فـتح أبوابـه لمـن يرغبون من الأرمن في العودة إلي وطنهم الأول.. عاد حوالي خمسة آلاف.. لم أكن منهم.

ـ لماذا؟

ـ صارت مجرد إقليم في دولة شيوعية.. احتلال مختلف..

قلت:

ـ أثق أن الطائرات غيرت فكرة الإنسان عن الوطن..

أردفت لنظرته المندهشة:

ـ لم نعد نحتاج إلي الأوقات الطويلة للانتقال بين بلد وآخر..

وربت يدي علي كتفه:

ـ العالم كله في المستقبل هو وطن الإنسان.

- ٦ -

قال فيصل مصيلحي وهو يعيد الأوراق:

- لازلت تصر علي السير في الزقاق المسدود.. فلسطين لن تتحرر بالمقالات ولا بالمظاهرات..

ثم وهو يهز قبضته:

- لن تحررها إلا القوة!

تعمدت اختيار نبرة مهونة:

- القوة تملكها الجيوش.. نحن لا نملك إلا المظاهرات والمقالات لتعبئة الرأي العام وإدانة الحكام..

غاظه تردد " حدتو " في إدانة ما تفعله عصابتا شتيرن والهاجاناه ضد شعب فلسطين. سـأل، ونـاقش، وأبدي الملاحظات. لم يقتنع بأسباب الصمت. وجد في دعوة الإخوان المسلمين ما لم يفطن إليه. كأنه يتعرف إلي دعوة الجماعة للمرة الأولي. اطمأن إليها. أزالت ما عاناه من ارتباك لصمت جماعته عما يجـري فـي فلسطين:

- أنا مسلم.. والانضمام إلي الإخوان المسلمين قرار صائب.. متأخر..

لم ينضم إلي جماعة ولا تنظيم من أي نوع. اهتماماته دينية، وإن ظلت بلا أطر تحددها. ما يقتنع بـه يقوله، أو يفعله. لا يشغله إن صادف قبولاً، أو واجه الرفض. كنت أحدس انتماءه إلـي جماعـة الإخـوان المسلمين. آراؤه وتصرفاته وضعته في إطار أراه من خلاله. الأخوان هم الحراس علي شـريعة الإسـلام، الراعون لمصلحة الأمة. يحدثني عن دروس الشيخ البنا. آراء الإخوان في أحوال المجتمع. يدفع لي بكتـب، تدل عناوينها علي ما تنطوي عليه: الإسلام في طور جديد لحسن البنا، تفسير ابن كثير، إحياء علـوم الـدين للغزالي , الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه لعبد القادر عودة، الاتجاهات الوطنية فـي الأدب المعاصـر لمحمد محمد حسين..

قضايا الدين في المؤخرة من اهتماماتي. تشغلني قضايا السياسة: الاستقلال، الديمقراطية، فساد الحكـم. ليست وحدها ما كنت أكتب عنه، لكنها اجتذبتني فيما يشبه الدوامة..

شارك في حملة التبرعات. وضع علي ساعده الأيمن شارة من القماش باللونين الأحمر والأسود، كتـب عليها بخط كبير: انقذوا فلسطين..

لمح نظرتي إلي الكتاب - في درج مكتبه العلوي - عن أعمال المقاومة الشعبية. حدثني عن تعلمه فك أجزاء المسدس، وتركيبه، واستعماله. تدربه علي إلقاء القنابل اليدوية. تفرقته بين أنواع المفرقعات والمـواد الناسفة وأدوات التفجير..

قلت:

- العنف لن يؤذي إلا المصريين الغلابة..

في بالي حوادث إلقاء المتفجرات علي معسكرات الجيش البريطاني، وأماكن تجمعاتـه، وعلـي نـادي الاتحاد المصري الإنجليزي. أعرف أن الهدف هو إظهار غضب المصريين من احتلال الإنجليـز لـبلادهم،

وأن عدم الجلاء سيؤدي إلي حوادث أخري، مماثلة. هدف جميل، ومطلوب. أخشي أن تخطئ القنبلة الهـدف الأجنبي فتصيب هدفاً مصرياً. عمّق من إحساسي بالخوف والمشاركة وقوع اعتداء علي كنيسة في الزقازيق. اتهم الإخوان المسلمون بأنهم دبروا، ونفذوا، ما حدث. كان فيصل يكتفي بقراءة الأخبار. يقرأها جيداً. ربمـا أعاد قراءتها، ثم يطوي الجريدة. يضعها علي طرف المكتب. لا يسأل، ولا يستوضح، ولا يبدي رأياً. حتـي النظرة التي أحرص أن تحمل معني، يتجاهلها، يكتم حتي مشاعره. تظل ملامح وجهه سـاكنة، وإن وشـت آراءه وتصرفاته بما يخفيه. تكررت رؤيتي له وهو يعيد تلاوة سورتي الأنفال والتوبة، وهو يقرأ كتب حسن البنا، وهو يدخل إلي شعبة الإخوان في بحري..

قال:

ـ ليس الأمر كما تتصور..

أضاف في لهجة حزينة:

ـ أعادت لي اللجنة العليا للمقاومة طلباً بالسفر إلي فلسطين..

ثم وهو يشير إلي عينه:

ـ الكشف الطبي أثبت ضعف بصري..

وحومت نظراته في الفراغ:

ـ كنت أريد الانضمام إلي كتائب الإخوان..

قاطعته:

ـ قرأت أن الإخوان يريدون مصر عن طريق فلسطين..

ـ كذب!.. يريدون فلسطين عن طريق مصر..

واتجه ناحيتي بنظرة متسائلة:

ـ لماذا لا تتطوع؟

ـ لم أفكر في هذا الأمر..

ـ ستعود فلسطين بالقتال وليس بالكلمات..

قلت في هدوء:

ـ ما قلته يصنع من الكلمات شعاراً جميلاً..

قال:

ـ هل تتصور أن فلسطين ستعود إلي العرب بمقالاتك؟

وأنا أغالب شعوراً بالعجز:

ـ ما أتصوره أننا لا نتعامل بجدية مع الحدث!

ـ ٧ ـ

كنا نجلس علي الكورنيش الحجري. ندلي سيقاننا إلي داخل البحر. يلامسها رذاذ الموج في اصـطدامه بالمكعبات الأسمنتية. أفق المينا الشرقية يمتد إلي ما بعد حاجز الأمواج بين السلسلة وقلعة قايتباي. مـساحات من الزرقة المتصلة بلا انتهاء، أو حتي التقاء السماء بها. وثمة صياد توقف عن التجديف. ترك القارب يطفو فوق الأمواج الهادئة. وكانت الشمس شديدة البياض، فلا نستطيع التحديق فيها، ولا حتي مجرد النظر إليها.

انشغلت بتأمل السمكات وهي تنتفض. تحاول القفز خارج الغزل، أو النفاذ منه..

قالت:

ـ أكره أن ينتزع السمك من الماء، مثلما أكره أن يعدم الإنسان..

وأرخت رموشها الطويلة علي عينيها:

ـ الأرض هي دنيا الإنسان، والمياه هي دنيا السمك..

قلت:

ـ أحل ا صيد السمك..

ـ أنا أتحدث عن قناعتي..

واتجهت ناحيتي بملامح متسائلة:

ـ لماذا يطلق علي المياس صيد العصاري؟

ـ لأن صيده يتم ـ غالباً ـ وقت العصر..

ـ لماذا؟

وأنا أظهر الحيرة:

ـ اسألي الصيادين!

ـ ألست من بحري؟..

ـ صلتي بالسمك هي تناوله علي المائدة..

تحدثت عن البحر والصيد والصيادين. في زراعة الأرض لابد أن نبذر الحب، ونتعهـده بـالري، ثـم ننتظر الثمار. نحن في البحر نكتفي بإلقاء السنارة، أو الشباك.

كانت تعرف كل ما يتصل بالصيد. مناطق تجمع الأسماك، وطرق صيدها. وكانت تعيب علي صـيادي الطراحة والجرافة أنهم يلقون في المياه شباكاً ضيقة الثقوب، فتصعد بالزريعة الصغيرة..

حلق غراب من فوقنا. أخفضت رأسها، وأشاحت بيدها:

ـ أكره هذا الطير..

ـ هل آذاك؟

ـ إنه يأكل ما فوق الماء من سمك الدينيس..

ـ لماذا الدينيس؟

وهي ترفع كتفيها:

ـ وجبته المفضلة!

صارحتني بأنها تجد نفسها في منطقة ما بعد ميدان أبي العباس: السيالة وحلقة السمك وشاطئ الأنفوشي وورش المراكب والكبائن الخشبية والباعة وطائرات الأولاد الورقية، والحديقة الواسعة أمـام سـراي رأس التين..

قالت:

ـ أنا أحب أن أتحدث إلي البحر. مجرد أن أنظر إليه بما في داخلي..

ثم وهي تدير خصلة الشعر بإصبعها:

ـ ميزة البحر أنه يبتلع كل شئ.. حتي الأسرار..

ـ أسرارك كثيرة.. إذن لا يسعها إلا البحر..

ـ أبداً.. لكنني أثق في صمت البحر..

ظللت صامتاً، وإن استحثثتها ـ بنظرة مشجعة ـ علي مواصلة الكلام. قالت:

ـ كل شئ يذهب إلي البحر.. حتي مياه النهر تنتهي إلي البحر..

وواجهتني بالسؤال:

ـ هل تجيد العوم؟

قلت:

ـ منذ سنوات أكتفي من البحر بالتطلع إليه..

***

احتضنت ركبتيها، وحدقت في أفق المياه الممتد..

فاجأتني بقولها:

ـ أنت لم تدعني لزيارتك..

ـ خشيت أن ترفضي..

ـ ألا تقيم مع أهلك؟

ـ مع والدتي.. أبي مات منذ ثماني سنوات.. وأختي متزوجة..

ـ أنا أقيم مع أبوي وإخوتي.. ولدان يوسف ويعقوب يملكان مكتباً للتصدير والاستيراد..

ثم وهي تهز رأسها:

ـ تحدثت إليهم عنك..

ومدت يدها للمصافحة:

ـ نحن نرحب بزيارتك..

البيت يطل علي الميناء الشرقية. في منتصف المسافة بين تمثال الخديو إسماعيل وقهوة المطري. البيوت المتقاربة الارتفاع ، المتشابهة القسمات. ستة أو سبعة طوابق، جدران تآكلت من ملوحـة البحـر، مـداخل رخامية فسيحة بلا مصاعد، نوافذ وشرفات خضراء، مرتفعة بارتفاع الجدران..

تأكدت من العنوان في الورقة. ثم ضغطت علي الجرس..

طالعني من وراء الباب الموارب وجه نورا..

قالت:

ـ أهلاً..

وفتحت الباب..

عرفت أنهم يتوقعون زيارتي..

أشارت إلي شيخ في حوالي الخامسة والستين:

ـ أبي.. الخواجة أندريا بابيجيان..

في وجهه شيء مميز لم أدركه. ربما الجبهة المرتفعة، أو الحاجبين الكثيفين، أو العينين النفاذتي النظرة بما لا يتفق مع تقدم سنه. تناثرت في ذقنه شعيرات بيضاء لم يحسن إزالتها. يرتدي قميصاً أبيض يكشف عن صدر يفز شعره الأبيض، الكث..

قال:

ـ تقديم لا يخلو من مجاملة.. أنا مجرد صاحب ورشة صغيرة لتجارة الجلود..

وأمسكت نورا بساعد سيدة في أواخر العقد السادس:

ـ أمي.. السيدة ليليان.. خير من تطرز القطيفة بالخيط الذهبي..

أميل إلي السمنة. أجادت صبغ شعرها لولا الشعيرات البيضاء البازغة في المفرق، أوسط الرأس. لهـا وجه طفل، يخفي حقيقة عمرها، أبيض، مشرب بحمرة. يعلو عينيها حاجبان مثل هلالين صغيرين. ترتـدي فستاناً أبيض واسعاً، تناثرت عليه دوائر زرقاء، أحاطت معصمها بغوايش كثيرة، تحدث صوتاً إذا تحركـت يدها. لفت منديلاً من الحرير حول رقبتها، وتتدلي علي صدرها سلسلة ذهبية، تنتهي بصليب. تدس قدميها في حذاء مكشوف، أطلت منه أصابع طليت أظافرها بالمانيكير..

الشقة مربعة الشكل، تتوسط الصالة حجراتها الأربع، تناثر فيها كراسي من خشب الأبنـوس المطعـم بالذهب، وثمة ردهة ـ ضيقة نسبياً ـ تفضي إلي المطبخ والحمام وشباك المنور المغلق. الجـدران مغطـاة بورق رسمت عليه ورود زرقاء متباينة الأحجام. ينسجم لون الستائر مع زرقة الجدار. توسطت الجدار مرآة هائلة في إطار مذهب. ثمة ـ في الجانب ـ شمعدان كبير من الفضة، إلي جانبه تمثال صغير للعذراء تحمل وليدها. تدلت من الجدران مشغولات يدوية من الكانفاه والسرما. فوق الطاولة الرخامية تماثيل صغيرة لطيور وحيوانات، تتوسطها سلة فاكهة من الخوص، بداخلها تفاح وخوخ وكمثري.

قالت الأم وهي تشير إلي المشغولات المتدلية من الجدران:

ـ التطريز وسيلة لشغل وقت الفراغ..

قال الأب:

ـ نورا حدثتنا عنك..

وأنا أبتسم:

ـ قطعت فروتي؟

ـ بل ألبستك ثوباً من الذهب..

أردف بلهجة متفاخرة:

ـ تحدثت كثيراً عن مواقفك ضد اليهود..

ـ ليست ضد اليهود، فلي منهم أصدقاء. أنا ضد ما يحدث في فلسطين..

قالت الأم:

ـ يقول الخواجة إن انشغالك بقضايا السياسة زاد من اهتمامها بإنجاز رسالتها..

قلت بعفوية:

ـ ما الصلة؟

قال:

ـ أصعب الأمور أن يطرد شعب من بلاده..

وارتجفت عضلة فكه:

ـ شهدت أرمينية أول إبادة جنس جماعية في هذا القرن، ثم تلتها بعد ثلاثة عقود محاولة إبادة الشعب الفلسطيني..

قلت:

ـ الأرمن عادوا إلي بلادهم.. ويعودون..

وفي لهجة معتذرة:

ـ في فلسطين.. الوضع يختلف..

تحدث عما فعله العثمانيون في أرمينية عقب احتلالهم لها. نقلوا إلي الأستانة أربعين ألفاً من الحرفيين والصناع الأرمن. عملوا في الحرف والصناعات الدقيقة والمشغولات الذهبية، وفي مناجم الفضة، وفي الخياطة والحفر والتطريز واللحام والخراطة، ومهن أخري كثيرة..

ثم اتجه بعينيه ناحيتي كأنه يتأمل رد الفعل لما قاله..

ـ الشيء نفسه فعلوه في المصريين بعد أن احتلوا بلادهم..

تحدث بلهجة تخلو من الكلفة. روي عن قدوم أبويه من أزمير، في هجرة الأرمن أواخر القرن التاسع عشر. آلاف الفارين من المذابح والمجاعات. استوعبتهم الخيام والعشش في أفنية الكنائس والمدارس الأرمنية، ثم خرجوا إلي وظائف الحكومة، والحرف التي يتقنها الأرمن، ونقلوها إلي مصر: التصوير، وصناعة الزنكوغراف، وصنع البسطرمة، وإصلاح الأحذية..

قال:

ـ عمل أبي ثلاث سنوات في وكالة ماتوسيان للسجاير بشارع فرنسا. لم تكن مهنته، فاسـتقال منهـا، وافتتح ورشة صغيرة لصناعة الجلود..

واستعاد لهجة التفاخر:

ـ كما تري، فإن إنجابي هو إنجاز أبي الأول!

تحدث عن الإسكندرية الكوزموبوليتينية، إسكندرية الخواجات. المقاهي والمخابز ومحال البقالة والدخان والسجائر والكازينوهات واللوكاندات.. كلها للأروام والأرمن والإيطاليين والإنجليز والفرنسيين..

قلت ضاحكاً:

ـ لهذا تهتف المظاهرات: عاشت مصر حرة مستقلة..

قال:

ـ حرة من الاحتلال العسكري الإنجليزي..

دندن بأغنية شعبية أسبانية، تروي عن أهل المدينة الذين ألقوا بالمسيح في النهر لأن السماء لم تمطر..

قال:

ـ هذا هو الجزاء الذي لقيته الجاليات الأجنبية في مصر..

وأشار إلي صدره بأصابع مضمومة:

ـ نحن قدمنا للإسكندرية خدمات كثيرة..

لاحظت تغيراً في سحنته، وما يشبه الغضب..

قال الخواجة أندريا وهو يدفع أمامي الطبق الكبير بأصابعه:

- المياس هو أجمل أنواع السمك في المينا الشرقية..

تذكرت السؤال:

- لماذا يسمونه صيد العصاري؟

- لأن أنسب أوقات صيده ساعات العصاري..

وأشار بيده ناحية البحر:

- ألا تلحظ تعدد البلانسات في ذلك الوقت؟

وحدجني بنظرة متسائلة:

- أظن أنك تحبه؟

قلت:

- أفضله بالبطاطس..

- المهم أن تحبه. نورا ترفض السمك علي المائدة..

كرر قوله إن أجمل المياس صيد العصاري. ترصه زوجته في الصينية. تضع خلاله وفوقه، شرائح البطاطس والبصل المبشور والطماطم. ترش الملح والفلفل الأسود. يعود البواب بالصينية من الفرن، أكلة لا تنسي.

وابتسمت عيناه:

- هذا ما ستفعله ليليان في المرة القادمة..

قالت نورا:

- نحن نحتفل معك بعيد ٢٨ مايو..

استطرد الخواجة أندريا:

- الأرمن - حتي المقيمون في المنفي - يشاركون حزب الطاشناق احتفاله بعيد قيام أول حكومة في العصر الحديث..

ثم وهو يهز رأسه:

- ظلت حوالي ألف يوم فقط.. لكنها أول حكومة مستقلة بعد مئات الأعوام من سقوط آخر ممالك الأرمن..

ولجأ إلي العد بأصابعه:

- احتفالاتنا كثيرة.. في ٢٤ إبريل نحتفل بعيد الشهداء، اليوم الذي أعطيت فيه إشارة البدء لقتل مليون ونصف المليون أرمني سنة ١٩١٥ علي أيدي القوات العثمانية. في ٢٦ يوليو نحتفل باليوم الذي اخترع فيه القديس الأب ميسروب ماشتوتس الحروف الأرمنية..

ولانت ملامحه:

ـ احتفالاتنا كثيرة..

ألفت التردد علي البيت. أجلس في الصالة. يستعيد الخواجة أندريا ذكرياته. تشرق أحاديثنـا وتغـرب. يكتفي يوسف ويعقوب ـ إن كانا داخل البيت ـ بالتحية السريعة، ويمضيان إلي حجرتهما، أو إلـي خـارج البيت..

تحدث عن عضوية أبيه في حزب الأرمينا جان، أول الأحزاب السياسية الأرمنية. أسسه عدد من المدرسين الشباب. قصر هدفه علي تحرير أرمينية. لم يصله بأهداف سياسية ولا اجتماعية. التحرير هو الهدف الأول، وهو الهدف الأخير..

وهو يأخذ طبق الشاورمة من أمام يعقوب:

ـ تحب الشاورمة؟

أومأت بالموافقة..

قال:

ـ هل تعرف أن الشاورمة أكلة أرمنية؟

قلت في لهجة مجاملة:

ـ كنت أظنها شامية؟

ـ بل أرمنية. نقلها المهاجرون الأرمن من بلادهم..

وعلا صوته بالانفعال:

ـ عزلة الشعب الأرمني أفادته في الاحتفاظ بشخصيته..

قالت الأم:

ـ نحن نحرص علي الزواج فيما بيننا..

قلت بعفوية:

ـ لماذا؟

ـ هذا ما يحدث..

قال الخواجة أندريا:

ـ ربما لحفظ التواصل العرقي بين أبناء الأرمن!

ـ وحالات الزواج من غير الأرمن؟

ـ تصرف لن يدخل صاحبه النار.. لكن هذه هي عادة الأرمن!

كانت نورا تتجه بنظرتها ناحية البحر. خذلني الحدس ما إذا كانت قد استمعت إلينا..

تحدث الأب عن الشعور بعدم الأمان الذي بدّل عادات الأرمن. تحايلوا علي الأتراك، فارتدوا ملابسهم. وضعت النساء البراقع علي الوجوه. تزوجت الفتيات في سن مبكرة. تحدث عن تكيف الأرمـن ـ بعـاداتهم وتقاليدهم ـ مع المجتمع المصري، وإن لم ينصهروا فيه. ظلت لهم سلوكياتهم التي يحرصون عليها..

قال الخواجة أندريا:

ـ من الناحية النظرية نحن لسنا أجانب.. كنا رعايا الدولة العثمانية..

وأشار إلي صدره بأصابعه المضمومة:

ـ أنا شخصياً دفعت البدلية..

ثم في صوت هامس، كأنه يخاطب نفسه:

ـ أظن أن الكنيسة الأرمنية كان لها دور في احتفاظ الأرمن بقوميتهم..

وركز عينيه فيما لم أتبينه:

ـ آباء الكنيسة هم قادة الشعب الأرمني خارج بلاده..

ووضع يده ـ بود ـ علي كتفي:

ـ أنا دائم التردد عليها، ولي فيها صداقات..

تحدث عن نادي " ديكران يرجات " بالإبراهيمية. أقدم ناد أرمني في مصر. قال إنه يقضي فيه أوقات فراغه..

قالت نورا:

ـ أنا وأخوتي أعضاء في نادي سموحة!

تحدث الخواجة أندريا عن مواطنة الدرجة الثانية التي عومل بها الأرمن في بلادهم: عدم قبول شهاداتهم في المحاكم، منعهم من حمل السلاح، إلزامهم بدفع الجزية..

قال:

ـ لاحظت أني والمدام وحدنا نعرف ماذا جري، فشجعت نورا علي وضع رسالتها..

وتلون صوته بحزن:

ـ حتي الولدين لا يعرفان شيئاً عن أرمينية، ولا عن الأرمن..

وأغمض عينيه، وهز رأسه:

ـ هما مصريان..

قلت:

ـ هل هذا خطأ؟

ـ الخطأ أن أنسي جذوري!

وعاد الانفعال إلي صوته:

ـ أرمينية هي الصورة الأولي للوطن!

لاحظت أن أفراد الأسرة يتحدثون بلغة أجنبية ـ هي اللغة نفسها التي يتحدث بها الدكتور جارو ونورا. أدركت أنها الأرمنية ـ لا يغيرونها إلا إذا كنت مشاركاً في المناقشة.

التقط الخواجة أندريا ملاحظتي. قال:

ـ حاول الأتراك محو لغتنا، وحاولوا قتل عاطفتنا القومية، لكنهم لم يفلحوا..

وغمز بعينه اليسري:

ـ كما تري، نحن نحتفظ في المهجر بلغتنا ومشاعرنا القومية.

***

سحب الخواجا أندريا الناي من الحائط. قال:

ـ أنا أجيد استعمال الناي..

ثم وهو يمسد الناي براحته:

ـ تعلمت علي يد أمين بوزاري أشهر عازفي الناي القدامي..

أدركت من إغماض عينيه، وانهماكه في العزف، أنه قد استغرق في حالة حنين. لمحت في عينيه الدمع، بعد أن أتم العزف وأعاد الناي إلي موضعه..

قلت مداعباً:

ـ أين كنت يا خواجة أندريا؟

اكتفي بهز رأسه. ظل صامتا.

قالت نورا:

ـ هل تريد سماع أغنية أرمنية؟

عزف عليه، وغنت نورا بكلمات أرمنية، لم أفهمها، لكن صوتها بدا جميلاً..

قالت:

ـ هل أجيد الغناء؟

قلت:

ـ جداً..

قال الخواجة أندريا:

ـ حتي الثالثة من عمرها تقريباً كانت نورا تتكلم بالأرمنية، ثم حرصنا علي أن تقتصر أحاديثنا أمامها علي العربية..

ثم وهو يربت خدها:

ـ هي الآن إسكندرانية تماماً..

قلت لمجرد أن أتجه إليها بالسؤال:

ـ لاحظت أن معظم أسماء العائلات الأرمنية تنتهي بحرفي " يان "..

مطت شفتيها، وقالت:

ـ لم ألحظ الأمر..

وأدارت خصلة الشعر حول إصبعها:

ـ ربما لأن المقطع يان في ختام معظم الأسماء يعادل ياء النسب في اللغة العربية..

وقطعت الصمت الذي حل فجأة:

ـ تعال نجلس في حجرتي..

السرير الخشبي الصغير في جانب الباب، تعمدت ألا ألتفت إليه. الأنتريه الأسيوطي ـ كنبة وكرسيان ـ ظهره إلي النافذة المطلة علي الشارع. المكتب الصغير لصق الجدار، فوقه آلة كاتبة، الكومودينو من خشب الزان، تعلوه مكتبة ذات ثلاثة أرفف بضلفتين من الزجاج، وإلي جانبه ما يشبه الدولاب الصغير، أسفله ضلفة مغلقة، وأعلاه أدراج مفتوحة صفت فيها اسطوانات. صف فوقه تماثيل صغيرة من الصلصال، لمجموعة عازفين تختلف الآلات التي أمسكوا بها. علي الأرض فروة خروف فرشت كسجادة. علقت علي الجدران صور عائلية، وجوه، وصور زفاف..

لم تكن المكتبة مقتصرة علي الكتب التاريخية. ما تطلبه في إعداد رسالتها. تلاصقت قواميس بالعربية والفرنسية، وكتب في السياسة والاقتصاد، وأعداد من روايات الجيب..

ـ قراءة للدراسة أم لمجرد المعرفة؟

تكلمت عن مصادر الرسالة ومراجعها. فرض التنوع عليها أن تتقن الأرمنية والعربية والفرنسية، وتحاول فهم التركية والإنجليزية والروسية. الكتب والصحف والمخطوطات والرسائل والوثائق لا حصر لها، مطبوعة وغير مطبوعة. مذكرات وذكريات وبحوث ولوائح وقوانين ومراسيم ومراسلات وتقارير وألبومات مصورة. حتي دفاتر وفيات المطرانية الأرمنية التي لم يسبق نشرها، عادت إليها. تتعرف علي أسماء النازحين، والمدن التي نزحوا منها، والمدن التي استقبلتهم في أثناء النزوح. حتي برامج الحفلات الاجتماعية والفنية والثقافية توضح المشهد في خلفية الصورة. همها أن تحسن القراءة والمتابعة والفهم، والتوصل إلي النتائج الصحيحة..

التقطت عنوان كتاب " تاريخ الدولة العلية " لمحمد بك فريد. حدست أنه كان للخواجة أندريا من صفرة الورق، وغلبة خطوط القلم الحبر في دوائر وتقاطعات وتشابكات.

قالت:

ـ هذا الكتاب كان بداية اهتمامي بالكتب السياسية. اشتريته من مكتبة بالعطارين..

أكدت حدسي:

ـ حصلت عليه من أبي. به معلومات عن دولة الخلافة..

وتنهدت:

ـ كنت أتوقع من الدكتور جارو فائدة أكثر..

ـ أتصور أن هذا ما حدث..

ـ كرر وأغفل تواريخ مهمة..

وهزت كتفيها:

ـ لعله تقدم العمر!

ـ ألا يوجد من تستكملي عنده المعلومات التي تطلبينها..

ـ عرفت من أبي أنه هو الوحيد الذي شهد المذابح..

شردت. اتجهت عيناها إلي نقطة غير مرئية:

لما بدأت في الاستماع إلي أحاديث الدكتور جارو عن أرمينية. لم أكن أعرف أين هي، ولا الظروف التي تعيشها بعد أعوام التهجير. ثم عرفت ما كان غامضاً، أو ضبابياً، في انشغال نورا برسالتها. أبحث عن مراجع للرسالة في مكتبات العطارين، أقرأ ما تكتبه من بطاقات، أستوضح ما لا أفهمه. أكتفي بالإنصات وهي تتكلم، كأنها تتجه بكلماتها إلي أفق البحر أمامنا..

في لحظة ـ لا أذكرها ـ تبينت أني لا أبحث في تاريخ مذابح الأرمن. أنا أبحث عن جذوري. نشأتي في الإسكندرية. لكن أبي وأمي قدما من مدينة أخري، من وطن آخر.

منذ بدأت الإعداد للرسالة. القراءة وتجميع البطاقات. داخلني شعور أني أختلف عن زملائي في الكلية، ومن أعرفهم بعيداً عن أسرتي. حتي الملامح، تنبهت إلي أنها تختلف عن ملامح من أعرفهم من الأرمن. لاحظت أني بدأت أطيل النظر، وأتأمل. ربما طرحت المقارنة. لم أدرك ـ علي وجه التحديد ـ متي استقر شعوري بأني أنتمي إلي وطن ـ لم أره ـ يبعد عن الإسكندرية بآلاف الكيلومترات.

تحدثت عن قراءاتها في التاريخ والسياسة. ترددها علي الأتيلييه، وعلي تياترو محمـد علـي، تـشاهد عروض الفرق الموسيقية والباليه والأوبرا. حضورها للحفلات الموسيقية في نادي ديكران يرجـات. حبهـا لأعمال رينوار وماتيس وشاجال وبيكاسو ومانيه. رحلاتها خارج المدينة مع طـلاب الجامعـة. ممارسـتها لرياضة المشي علي رصيف كورنيش المينا الشرقية.

قلبت في أدراج الدولاب الصغير. أوبرات كارمن وعايدة وشهرزاد ودون جوان. سيمفونيات لبيتهـوفن وشوبان وموزار. مقطوعات كلاسيكية لفردي وكليمنتي..

قالت:

ـ هل تستمعين إلي أغنيات مصرية؟

حدجتني بنظرة دهشة:

ـ أحب أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش وليلي مراد..

استطردت في تنبه:

ـ وأحب ألحان سيد درويش.

ثم وهي تهز كتفيها:

ـ صوته لا يعجبني!

ومالت بفمها علي أذنه:

ـ هل أسمعك شيئاً؟

سحبت من المكتبة الصغيرة كتاباً منزوع الغلاف، مهترئ الصفحات. أعفتني من تخمين اللغة التي كتب بها في قولها:

ـ هذا ديوان بالأرمنية..

ـ هل تجيدين الأرمنية؟

ـ طبعاً..

ـ لكنك من مواليد الإسكندرية..

أمنت بهزة من رأسها:

ـ وتخرجت في مدرسة راهبات الأرمن الكاثوليك قبل أن أدخل الجامعة..

وعلا صوتها في تذكر:

ـ كيف أقرأ وثائق الرسالة لو لم أتقن اللغة التي كتبت بها؟

وبدأت في القراءة..

استعارت صوتاً أضاف عمقاً إلي رقة صوتها:

تري إلي أين تحملين يا روحي المعذبة
صليبك الخشبي الأسود؟
أثمة جمجمة جديدة لكي تصعدي فخورة
حيث ينظر الجميع إلي إكليلك المضيء
بحب جارف؟
هل أنت مثل يسوع تصعد الجبل؟
أم أنت مجرد لص حكم عليه بالموت؟
وهل كل إنسان هو بيلاطس
الذي يغسل أمامك يديه؟
أي إكليل مضي؟
وكيف تصعدين يا روحي
طوعاً في طريق الآلام؟
وأنت لا تعرفين حتي نفسك
إن كنت يسوع أم يهوذا؟
هل لديك يا روحي ميزان دقيق حاسم
كي تزني هذا الفكر الطليق
في انتصاف الليل الحالك لعذابك الأليم؟(*)

لم ألحظ انقضاء الوقت حتي بدت الشمس قرصاً أحمر في نهاية الأفق. شدنا الحوار. أسـأل وتجيـب، تسأل وأجيب. نتأمل، ونبدي الملاحظات، من شرفة غرفتها ـ حركة الحياة في طريق الكورنيش.

ـــــــــــــــــــ

(*) قصيدة للشاعر الأرمني يغيشي تشارنتس (١٨٩٧ ـ ١٩٣٧) ت: د. فاروجيان كازانجيان. صياغة شعرية: محمد إبراهيم أبو سنة.

- ١٠ -

أشارت نورا بيدها إلي شارع توفيق..

قالت:

- مظاهرة..

- لماذا؟

- لألف سبب..

ثم وهي تصلح بأصابعها من فوضي شعرها:

- اتهم النقراشي الإنجليز في مجلس الأمن بالقرصنة، وعاد ليمارس القهر علي المصريين.

كنا واقفين علي باب مكتبة دار المعارف. صحبتها لشراء مراجع، واشتريت كتـاب محمـد خطـاب " المسحراتي "..

اعتدت أن أقضي ساعات في مكتبة كلية الآداب، في البناية المطلة علي شـاطئ الـشاطبي. أتـشاغل بقراءة ما أشعر أني سأفيد منه في دراساتي. علي الجانب المقابل من الطاولة الخشبية المـستطيلة، اللامعـة. تضع نورا المراجع أمامها. تسجل في بطاقات ما تري أنه يفيدها في رسالتها. تومئ برأسها، دلالة أنها تستعد للانصراف. أسبقها إلي الباب..

خلفت المظاهرة شارع توفيق. اتسعت مساحتها باتساع ميدان محمد علـي. انجـذبنا نحـو الهتافـات والزحام. سرنا في قلب المظاهرة. لم نعرف إلي أين تتجه. اندسسنا فيها، التصق كل منا بالآخر، ورحنا نردد هتافات كان الشاب في مقدمة المتظاهرين يرددها، ضد الصهيونية والولايات المتحدة، وبريطانيا.

أرنو بجانب عيني إلي نورا. أشعر أنها قد استغرقت تماماً في المظاهرة، والهتافات، وتكوير قبـضات الأيدي، وتحدي الخطر. يعلو صوتها بالهتاف، وإمارات النشوة تكسو ملامحهـا، وتخـبط الأرض بقـدميها، وتلوح.

علا صوت الشاب - فجأة - بهتافات غير التي كان المتظاهرون يرددونها وراءه: يسقط ملك النـساء والحفاء.. لا ملك إلا ا .. فاروق يا نور العين.. أمك مرافقها اتنين.. علي ماهر واحمد حسنين.

لم أفكر - لحظة - فيما علا به صوت الشاب. حتي الهتافات التي رددتهـا وراءه، لـم أتـدبرها، ولا تنبهت إن كنت قد استمعت إليها من قبل، أم أنها كانت وليدة اللحظة. مزق الشاب - في مقدمة المظـاهرة - العلم الأمريكي، وأحرقه.

عكس التصفيق وترديد الهتافات، تأييد المطلين من النوافذ، والواقفين في المقاهي، وعلي أبواب البيوت والأرصفة.

هدأت المظاهرة في اقترابها من شارع فرنسا. لاحت أمام قسم المنشية قوات بوليس ازدحم بها الشارع، وأقامت الكردونات. خفتت أصوات المتظاهرين وهي تهتف بالنشيد " بلادي بـلادي فـداك دمـي ". تلفتـوا يبحثون عن قطع الحجارة، وأيدي العساكر تحمل الهراوات والبنادق، والجياد تجري وسط الجميع، لا يستطيع

حتي العساكر ضبط خطواتها. لجأ العساكر إلي كعوب البنادق، يضربون ويضربون، لا يتحرون المواضـع التي تتجه إليها، ولا تشغلهم الآثار الدموية - وربما القاتلة - التي تحدثها. اختلط وقع الهتافـات، وتماسـك الأيدي، والضربات، والصرخات، والصهيل، والقنابل المسيلة للدموع، والدماء النازفة..

***

جاءني صوتها في التليفون - بعد غيبة أيام - فاتراً:

- إن أردت، يمكن أن نلتقي في موعدنا.

لم تشر إلي المكان، لأني كنت أسبقها إلي الكورنيش الحجري أمام مدينة الملاهي بالأزاريطـة. ربمـا سرنا إلي السلسلة، أو إلي قبالة تمثال الخديو إسماعيل، أصحبها إلي مكتبة كلية الآداب. مرتـان، التقينـا - خارج البيت - في ميدان أبي العباس، وعلي شاطئ الأنفوشي. زرت معها - للبحث عن مراجع - المركز الثقافي الأمريكي بشارع فؤاد.

تكلمت عن الموعد، ولم تحدد المكان.

حدست أنها تقصد الموضع الذي اعتدنا اللقاء فيه.

سرنا في اتجاه بحري. خلفنا مرسي القوارب في الميناء الشرقية، والشارع المفضي إلي معهد الأحيـاء المائية، وقلعة قايتباي، ومساكن السواحل، وكومات الحجارة والردم تتسع بها مساحة الأرض أول الأنفوشي، وورش المراكب. تناهي أذان العصر من مسجد طاهر بك أول شارع الحجاري.

أمسكت بساعدي. ساعدتها علي القفز - بأقدامنا الحافية - علي الكورنيش الحجري - قبالة قصر أم البحرية ذي الطابع الشرقي والطوابق الثلاثة - إلي داخل الشاطئ. إلي اليسار ثكنات الحرس الملكي، وقصر رأس التين، وإلي اليمين البيوت التي تآكلت واجهاتها بملح البحر، وفي الأفق تعلو الجزيرة الصغيرة

مد الموج يلامس الرمال. تضوي لحظات، ثم تعود الرمال إلي انطفائها، بامتصاصها للماء، وبحرارة الشمس..

يترامي صوت ارتطام الأمواج بالصخور، أسفل الكورنيش الحجري، ترافقه صيحات النورس، وهبات الريح المندفعة من ناحية الشمال..

جلست فوق الكورنيش. تحتضن ساقيها، وترنو إلي الأفق. يترامي صوت تكسرات الأمواج. وثمة بقايا طحالب وأعشاب وقناديل بحرية، واندفعت كابوريا نحو حجر داخل الرمل..

اندلحت دفقة هواء مفاجئة. طار أسفل فستانها، فظهرت ساقاها وما فوق ركبتيها. تملكتنـي رغبـة أن ألمس البشرة الوردية، الناعمة..

لاحظت أني أختلس النظر، فشبكت يديها علي الركبتين، ونطق التوتر في ملامحها..

قلت لمجرد أن يدور حوار:

- لكل إنسان حلم.. وحلم هذا الصياد تركز في السنارة التي تنتهي بها القصبة.. إنها وسـيلته بـالطعم الملتف حولها لاجتذاب السمك!

قالت:

ـ قرأت حكاية عن صياد طلعت شبكته بعروسة بحر، عرضت عليه أن يطلق سراحها لقاء مساعدته في الحصول علي ما تضمه أعماق البحار من كنوز وثروات..

قلت وأنا أغوص في زرقة عينيها:

ـ عروستي لا تعادلها كنوز الدنيا كلها!

كنت أري في عينيها أسئلة كثيرة، وإن لم تجرؤ علي مصارحتي. أدركت أنها تخفي وراء الابتسامة التي تملأ الوجه ما تعانيه. راعيت ميلها إلي الصمت. لم أشأ أن أسألها في ما قد لا تجيب عنه..

ـ أين كنت؟

ـ لم أترك حجرتي..

ـ لماذا؟

عانيت ارتباكاً، فتنقلت نظرتي بين الرضوض والكدمات الزرقاء في ساقها، والقوارب التي تصيد المياس في خليج الأنفوشي. رفعت الجونلة ـ بعفوية أربكتني ـ إلي ما فوق الركبتين، وأشارت بيدها:

ـ زميل في الدراسات العليا ظن نفسه كازانوفا..

قالت إنها لم تبح لأحد بذلك السر. اختصتني بما أطالت كتمه في نفسها. حتي نظرات الخواجة أندريا القلقة، وأسئلة الأم، اكتفت أمامها بالصمت. ما حدث أكبر من أن تحاول استعادته: حصاره لها في الشقة المغلقة. نظرته الشهوانية، المتوعدة..

قال من بين أسنانه:

ـ لماذا أنت هنا؟

ـ لنذاكر معاً..

ـ فقط؟

هزت رأسها:

ـ فقط..

ـ هل هذا كل ما تملكه فتاة أرمنية..

أدركت ما يفكر فيه:

ـ أولاً.. أنا مصرية..

ورمته بنظرة ساخطة:

ـ ثانياً.. هل الأرمن يختلفون عن بقية البشر؟!

التف ساعداها ـ بتلقائية ـ حول وجهها. تتقي الصفعات التي فاجأها بها، صفعات قاسية، رافقتها عبارات قاسية، وشتائم. لف شعرها حول قبضته. اجتذبها. طرحها علي الأرض. ظل يوجه إليها اللكمات والصفعات، والشتائم..

ـ تملكني شعور أنه يريد قتلي!.. يضرب ليقتل لا ليؤذي!

ـ لماذا؟

وهي تهز راحة يدها:

ـ لا أعرف.. لا أعرف..

وأنا أغالب التردد:

ـ آسف.. لكن هل كان يتوقع شيئاً؟..

شوحت بيدها:

ـ لا أعرف ذلك النوع من التوقعات!

وغامت في عينيها سحابة دامعة:

ـ أستعيد الموقف فلا أجد ما يبرر فعلته إلا أنه مجنون..

سكت قليلاً، ثم قلت:

ـ هل رويت ما حدث للأسرة؟

ـ النتائج السلبية سأتحملها بمفردي!

داخلني شعور أني أراها للمرة الأولي. ليست هي الباحثة التي ألتقي بها في عيادة الدكتور جـارو، ولا الصديقة التي تصحبني إلي بيت أسرتها، ومكتبة كلية الآداب، وكورنيش الشاطئ، بل ولا حتي الفتاة الجميلـة بشعرها الأصفر، وعينيها الزرقاوين، وأنفها الصغير. هذه فتاة أخري. تهبني ثقتها، تحدثني عن معاناتها، وما كتمت روايته.

***

طارت بي الدنيا ـ رغم تأثري ـ لأنها باحت لي بالسر الذي تحتفظ به لنفسها. بما حرصت ألا ترويه لأحد..

لماذا اختارتني من بين كل الذين تعرفهم لتحكي لي أسرارها؟

أثق أنها تعرف كثيرين. تتناثر في كلماتها أسماء كثيرة، وأحداث شارك في صنعها مـن لا أذكـرهم، لكنهم ـ بالتأكيد ـ يملأون ذاكرتها..

هل هي صادقة في تحذيرها لي؟. قالت: إني إذا أعدت رواية الأسرار التي ائتمنتني عليهـا، فـستكون الأسرار قد جاوزت اثنين، فعرفها ثالث؟.. وانغماسها في الأحاديث الهامسة مع العجوز، ألا يسرق ما تتصور أنها كتمت صدرها عليه؟

أيقنت ـ في لحظة لا أذكرها ـ أني لم أعد أعرف أحداً، ولا شيئاً، في الدنيا سواها. ألتقي بـالآخرين، أحادثهم، أسير في الشوارع، أقف علي شاطئ البحر، أتلقي الرسائل من القرية، أحيا كما يحيا النـاس. لكـن صورتها وحدها هي التي تشغلني.

ما نتبادله في أحاديثنا يشي بالصداقة، لكنه لا يتطلع إلي تسمية، أو تسميات، أخري..

الحب!..

شعرت أني أحبها. لا يشغلني في هذا العالم سوي أن تكون لي. لا تشغلني القراءة ولا الكتابة ولا الآراء المؤيدة أو المعارضة، ولا فرص النشر، ولا عملي عند فيصل مصيلحي، ولا أي شئ. أن أكون محباً لهـا،

محبوباً منها، هو ما يهمني. تهاوي جدار السر بيني وبينها، أعطي كل منا نفسه للآخر بالفضفضة، ورواية ما كان يعتبره شأنه الشخصي.

أنا أحبها.

أتصور أني أري الحب في عينيها. أثق أنها تبادلني الحب، وإن لم تهبني ما أحيا علي توقعه: كلمة، أو إيماءة، أو نظرة ذات معني..

هل أحبتني؟!..

لم يغب شعوري، ولا شحب، ولا تخاذل، بأنها تضمر لي ما أسميه الحب، ما أضعه في إطاره..

خلت دنياي إلا منها: شعرها الأصفر، المتموج، علي رأسها وكتفيها، وعيناها الصافيتا الزرقة، وأنفهـا الصغير، وشفتاها الرقيقتان كورقتي وردة، وقوامها الذي يستدعي معني العافية. أصـحو، وأنـام، وأقـرأ، وأكتب، وأسير، وأجلس، وأسأل، وأجيب، وأناقش، وأشاهد. لا تبرح ذهني. ربما ناقشتها - بيني وبين نفسي - فيما أكتمه في داخلي، لا أقدر أن أواجهها به.

كانت تدير الفونوغراف في حجرتها علي أسطوانات لباخ أو موزار أو بيتهوفن. ترنو ناحيتي. تتأمـل انعكاس الموسيقا في ملامحي. أحببت الموسيقا الكلاسيكية لأني أحب نورا. تنقلني إلي أجواء تخـتلط فيهـا عيناها، وابتسامتها، وخصلة الشعر الملتفة حول إصبعها، والهارموني المناسب في عالم بلا زمان ولا مكان..

فاجأتني بالقول - ذات مساء - ونحن نفترق في محطة الرمل -:

- لا إله إلا ا .

قلت بعفوية:

- محمد رسول ا .

تنبهت - في اللحظة التالية - إلي ما قالت..

اعتدت - فيما بعد - قولها: بسم ا الرحمن الرحيم.. اسم ا عليك.. وديـن النبـي.. وحيـاة أبـو العباس..

تمنيت أن نتبادل - ذات يوم - كلام المحبين. يصعب أن أحدسه معها. ماذا أقول؟ ماذا تقول؟. لكنـه لابد أن يختلف عن كلام المظاهرات، وذكريات الدكتور جارو، وقضايا السياسة، ومراجع رسالة الماجستير..

عدنا إلي السير في ميدان المنشية..

بدا الميدان صامتاً، ساكناً، يختلف عن الصورة التي كان عليها يوم الصدام بين المتظـاهرين وقـوات البوليس. لم يعد إلا قطع حجارة متناثرة، وفروع أشجار، وبقع دماء داكنة..

صحبتني إلي مكتب البريد الرئيسي بالمنشية. وضعت حوالة الجنيهات الخمسة في داخـل المظـروف. كتبت عليه " السيدة الفاضلة والدة صلاح بكر - الصوامعة - طهطا. أرفقت بالحوالة كلمات، لمّحت فيها إلي أن العمل قد يأخذ وقتي في الفترة القادمة.

كيف تستقبل أمي زواجي من نورا، لو أن أميرتي وافقت؟

حياتها تختلف عن حياتنا. إنها جميلة بارك ا   لك فيها. هي ليست من دينك. هل تعرف أهلها؟ هل تقبل العيش بعيداً عن الإسكندرية؟.

حتي لو عارضت أمي، فإنها ـ هذا هو ما اعتدته ـ ستوافق، وتبارك، وتحب نورا مثلما أحببتها..

- ١١ -

بدت العيادة ممتلئة بالمترددين. علي غير العادة. هو الوقت الذي خصصه الدكتور جارو لاستقبال نورا، ولاستقبالي..

لمح وقفتي المترددة:

- ادخل..

وأشار إلي صناديق كرتونية صغيرة فوق المكتب:

- مستوصف سوق السمك القديم عاجز عن استيعاب طالبي التطعيم من الكوليرا..

ونفث تنهيدة:

- أحاول القيام بدور..

ونقر بإصبعه علي جبهته كالمتنبه:

- خذ المصل أنت أيضاً..

كنت أجالس في لقاءات تسجيل ذكرياته لنورا في فترات متباعدة. مجـرد الحـرص أن تظـل صـلتي بالدكتور جارو، وصداقتي له. ألتقي بنورا بعيداً عن العيادة. في بيتها، أو في أماكن نختارهـا، أو تختارهـا المصادفة. صار العالم كله ملكاً لنا..

اعتدت من العجوز أحاديث المرارة. يقتحمه الشعور بأنه وحيد. تغيب البواعـث، وإن بـدت الوحـدة قاسية. المرء يولد، يتعلم، يعمل، يأكل، يشرب، يتزوج، ينجب، يحب، يكره، يشيخ، يمرض، يموت..

لماذا يولد أصلاً؟ لماذا لا يموت من البداية؟

صارحني أنه ظل كارهاً لمصر أعواماً طويلة، حتي ألف الأمكنة والبشر، وإن بقيت صـورة واحـدة، ثابتة، لا تختلط بغيرها من الصور. يتجه - بالحنين - إلي مدن وأماكن في أرمينيـة. يـذكر الأسـماء. لا أعرف موضعها علي وجه التحديد. لا أعرف حتي كيف أنطقها جيداً. أكتفي بالخيـال فـي تـصور المـدن والبنايات والميادين والشوارع والجبال، والناس الذين افترق عنهم بتشريد المنافي..

- كان الموقع هو مشكلة أرمينية مثلما كان مشكلة مصر. أرمينية ملتقي الطرق التجارية والعسكرية بين أوروبا وآسيا.. ومصر ملتقي الطرق بين أوروبا وإفريقيا وآسيا.. لذلك تعددت الغزوات للبلدين منذ التاريخ القديم..

ولاحظت ارتجافاً في شفته السفلي:

- الأحلام بعيداً عن الوطن مجرد حالة مرضية..

وعكس وجهه ما يعتمل في نفسه من انفعالات:

- كنت أعد نفسي للعودة إلي أرمينية لولا الوباء الذي فاجأ الجميع..

حدست أن الرجل يعاني: هل يستعيد بالتطعيمات ما رواه عن دوره في إنقاذ جرجي النفي من بلاده؟

بدا الحدس يقيناً، لما التفت ناحيتي في وقفته أمام الطابور:

فهرس

ـ منذ قرار مجلس الأمن بتقسيم فلسطين لم يعد من السهل توقع ما سيحدث.

اكتفيت بهزة من رأسي..

قال:

ـ منذ ما يقرب من ربع قرن أنهت الحكومة العثمانية قضية الأرمن رسمياً. أعلنت أنه لم يعد للأرمن وجود في دولة الخلافة!

وهز سبابته:

ـ تحدث قرار تقسيم فلسطين عن العرب واليهود. أما معاهدة لوزان في ١٩٢٣ فقد خلت من كلمتي أرمينية والأرمن..

وداخل صوته تهدج:

ـ لم يعد للأرمن ادعاء مجرد الحق في الحياة..

وتبدّلت نبرة صوته:

ـ أخشى أن ذلك ما يعدونه للفلسطينيين!

أذهلني التماع عينيها بالمفاجأة. أدركت أنها لم تكن تنتظر هذا العرض، وأن العلاقة بيني وبينها ترفض الارتباط الأبدي..

رشقت في عيني نظرة زاجرة:

ـ أنا لا أصلح لك..

ـ هذا ما أقرره أنا. المهم هو: هل أصلح أنا لك؟

لم أتوقع ردها. لم أتوقع أنها سترفض. غابت الأحاديث عن المستقبل، لكنه بدا لي في الأفق القريب. يضمنا معاً، لا تهمله، ولا أتخلي عنه..

كنت قد صحبتها إلي حديقة الحيوان، تمشينا في حديقة أنطونيادس، انشغلت بقراءة الدوريات في مكتبة البلدية أثناء نقلها ملاحظات من المراجع، خلعت حذاءها وتقافزت علي رمال ستانلي، أرهفنا السمع لصوت ارتطام الأمواج بجدران قلعة قايتباي. تأملنا الصيادين يضعون الحبال الطويلة علي أكتافهم، يجرّون ـ في سيرهم المتباطئ علي الكورنيش الحجري والرصيف ـ شبك الجرافة إلي موضع إفراغه من الأسماك. زرنا المتحف اليوناني والروماني، ومقبرة اللاتين. أطلنا متابعة مواكب الزفاف في ميدان المساجد. تمشينا في المسافة بين تمثال الخديو إسماعيل والسلسلة. استعدنا وقفة نابليون في هضبة عامود السواري. ألحظ ما لم أتصوره في بداية تعرفي إليها. طالعتني بإلمام واسع في السياسة والتاريخ والاقتصاد. حتي القصص والروايات كانت تستشهد بأحداثها. ربما استعادت أبياتاً من الشعر للتدليل علي رأيها. لم تكن معلوماتها تقتصر علي الحياة في أرمينية، التاريخ والبشر والمعتقدات والعادات والتقاليد. تتكلم في كل ما تستدعيه المناقشات. تتسع رواياتها عن الحكايات والوقائع التاريخية والأماكن والأرقام والأحداث.

التقينا في ميدان محطة الرمل بشقيقها يعقوب. تبادلت نورا معه كلمات سريعة، وأومأ لي بالتحية، ومضي. اعتذرت عن عدم تلبية دعوتي بمشاهدة فيلم في سينما أمير، بطلاه دوريس داي وروك هدسون..

لاحظت أنها كانت تستعيد ما يرويه الدكتور جارو من صور. تتخيلها بالعبارات التي يتحدث بها: الطقس والجبال والسهول والوديان والميادين والشوارع والمتنزهات وسلوكيات الحياة. أعرف أنها ولدت في الإسكندرية. لم تغادرها إلي خارج مصر. مساحة الإسكندرية، ما يسهل أن تتحدث عنه ستة وعشرين كيلو متراً، المسافة بين قصر رأس التين وقصر المنتزة. ربما جاوزت المسافة إلي أبو قير، أو إلي ناحية الغرب في المكس. لكن أحاديثها تقتصر علي المساحة التي تشكل مدينة الإسكندرية، المدينة التي يغمض أهلها أعينهم علي قسماتها، يتحركون في الشوارع والميادين، ويتجولون بين الأسواق والبنايات.

قلت:

ـ قد لا تصدقين.. لكنني كنت علي ثقة أننا سنلتقي ذات يوم.

ـ أذكر أن لقاءنا الأول كان في عيادة الدكتور جارو..

ـ التقيت بك في خيالي عشرات المرات، وتوقعت أن يحدث اللقاء في الواقع..

ـ مجاملة لا بأس بها، لكنني لا أحب المبالغات الرومانسية.

وواجهتني بنظرة متسائلة:

ـ لماذا أنا؟

وأدارت خصلة الشعر بإصبعها:

ـ نحن نختلف حتي في الديانة..

ـ لكننا نتفق في ميل أحدنا إلي الآخر..

أردفت في تحمس:

ـ طبيعة الحب أنه لا يعترف بالعقبات..

ـ الحب ليس كل شئ في حياتنا. هناك أشياء أهم!

ـ حتي الأشياء الأخري، إما أن نحبها أو نكرهها..

استطردت في ثقة مفتعلة:

ـ الحب أو الكره.. أليس كذلك؟

قالت:

ـ لو أنني أحيا في أرمينية، قد تبهرني شخصية الرجل الشرقي، ما يغلف حياته من الغموض والسحر، لكنني أحيا في مصر.. أنا مواطنة مصرية..

قبضت علي حقيبتها، ونهضت واقفة.

- ١٣ -

مذبحة دير ياسين..

بدت شاغلاً للناس في كل مكان: ٢٥٠ عاملاً فلسطينياً كانوا عائدين وقت الغروب من عملهم. تـربص لهم أعضاء الأرجون وحصدوهم بالرصاص.

حضرت مؤتمراً، مزق فيه الطلبة صور الملك فاروق، وأشعلوا فيها النيران. أول هجوم سـافر ضـد الملكية. لحقتهم في مظاهرة تهتف: لا ملك إلا ا .

قال الدكتور جارو:

- ما يحدث في فلسطين ليس أول إبادة يشهدها هذا القرن. لا تنس الإبادة العرقية التي قام بها الأتراك ضد الأرمن.

ونطق الأسي في صوته:

- اللجوء إلي الإبادة يأتي عند الشعور بخطر السكان الأصليين. هذا ما حدث في أمريكا، وفي أرمينية، وهو ما يحدث في فلسطين..

وطرقع بأصابعه:

- هدف مذبحة دير ياسين - كما أري - دفع الفلسطينيين إلي الفرار بحياتهم خارج بلادهم..

وأسلم نفسه إلي شرود:

- هذا هو ما أراده الأتراك بمذابحهم ضد الأرمن..

واتجه ناحيتي بنظرة متسائلة:

- هل تذكر ما رويته؟

أمنية يستعيدها، يكررها: أن يزاح الغموض عن حقيقة الإبادة العرقية للأرمن، الموت جوعاً، والضرب المفضي للموت، وعمليات الاغتصاب، والتشوه الجنسي. ومضت إمكانيات، ثم اختفت. بدت المسافة متـسعة فيصعب تقريبها..

قال:

- لليهود دور سلبي في أوقات المذابح العثمانية للأرمن. أوكلوا إلي أنفسهم دور المرشدين عن الفارين من الإبادة..

وبدا أنه يجاهد ليبدو صوته هادئاً:

- عُرف - فيما بعد - أنهم عرضوا علي العثمانيين أثناء المذابح موافقة السلطان عبد الحميـد علـي استيطان اليهود فلسطين مقابل التأثير علي الإعلام الأوروبي والأمريكي..

أتبين - في رنة صوته - ما يعانيه. حتي لو كسا الهدوء وجهه . حتي الابتسامة الخافتـة، المتكلفـة، علي شفتيه، أحدس ما بذله من جهد في رسمها..

***

جاءني صوت نورا في التليفون حزيناً، مرتبكاً:

ـ ألقوا القبض علي الدكتور جارو..

أغلقت السماعة دون أن أعرف من هم، ولا لماذا ألقوا القبض عليه؟

كان إعلان قيام دولة إسرائيل، وتحرك القوات العربية إلي فلسطين، محور أخبار الإذاعات والصحف ومناقشات المكاتب والمقاهي والأسواق. كان يتأمل ارتباكي من أخبار الاعتقالات التي امتدت إلي كل أحياء الإسكندرية. استقبل معتقل أبو قير المئات من المصريين واليونانيين والأرمن واليهود. أعاني الانتظار أن يطالعني ـ في لحظة لا أتوقعها ـ من يحيط بساعدي وهو يقول: تفضل معي!

أطلت الوقوف أمام باب الشقة. لاحظت أمي أني أكتم ما يشغلها أن أبوح به. كنت أعاني ترقب المجهول. الخطر الذي لا أدري بواعثه ولا ملامحه. أبتعد عن أمي، وعن نورا، وعن الحياة التي ألفتها. أدخل نفقاً تطمس الظلمة مرئياته..

قالت:

ـ إذا تأخرت عن البيت لا تقلقي..

واتجهت للتساؤل في عينيها:

ـ ربما أسافر خارج الإسكندرية..

وهي تدير خصلة الشعر:

ـ هل تخفي شيئاً؟

ـ أبداً.. لكن إذا تأخرت سأترك خبراً عند فيصل مصيلحي في المكتب..

أغلقت الباب خلفي، حتي لا تربكني بالمزيد من الأسئلة..

فاجأني فيصل مصيلحي بتخوفه من دخول القوات العربية النظامية، بدلاً من قوات الفدائيين. الجيوش تعبير عن أنظمة فاسدة. أما الفدائيون، فهم يدافعون ـ بيقين ديني ـ عن بلاد الأقصي. استعاد قول الشيخ البنا للنقراشي: فلسطين فيها عصابات صهيونية، ونحن عصابات إسلامية، والعصابات يضرب بعضها بعضاً. إن انتصرنا فلمصر، وإن متنا دخلنا الجنة..

قال:

ـ للإخوان ست كتائب قبل إعلان الهدنة الأولي.. لماذا يجبرهم علي قبول ما اضطر لقبوله؟

قال لي العجوز دون مناسبة:

ـ لا شأن للحكومة بأصحاب الرأي.. لكنها تعتقل من ينضمون إلي تنظيمات معادية لها..

قالت في دهشة:

ـ لماذا تخبرني بهذا؟

بدا أن الرجل واصل شروده، فلم يسمعني. كانت عيناه ـ في الأيام الأخيرة ـ دائمتي الشرود. كأنه ينفصل عما حوله، وأنه لا يراني في جلستي أمامه..

أعدت السؤال..

قال:

ـ إذا نقل أحدهم آراءك فلا خوف. المهم أن تظل في حدود إبداء الرأي..

لم أعد أتردد علي العيادة. لم أعد أسير في اتجاه شارع إسماعيل صبري، ولا الشوارع المتـصلة بـه. توقعت أنهم دخلوا العيادة لاعتقالي. إن لم يفطنوا إلي المنشورات، فلابد أن تثيرهم مقالات الصحف.

سابع يوم، وربما ثامن يوم، كانت نورا تنتظرني أمام المكتب:

ـ لم يكونوا يقصدونك كما تصورنا..

وافتر فمها عن ابتسامة باهتة:

ـ ألقوا القبض علي الدكتور جارو.. ثم أفرجوا عنه..

لم أخف دهشتي:

ـ لا صلة للرجل بالسياسة..

ـ لعلها وشاية أو بلاغ كاذب..

هزت رأسها مؤمّنة:

ـ حققوا معه، ثم أفرجوا عنه..

أذهلني هدوؤه كأنه لم يعتقل، ولا تعرض للتحقيق، بكل ما ينطوي عليه من ملابسات. ظلت الابتـسامة الهادئة علي شفتيه، وإن تكثفت ـ في وجهه ـ خيوط توتر صامت..

قال:

ـ البلد في حالة حرب، وأنا أجنبي..

هتفت بانفعال:

ـ أنت أكثر مصرية من بعض المصريين..

ـ رأي أعتز به.. لكن الأمن لا يعرف التعبيرات الطيبة..

أردف في لهجة محايدة:

ـ هذا ليس وطني..

وتلفت حوله كالمتحير:

ـ لم يعد يغضبني فقد أي شئ منذ فقدت أرمينية..

ألقت نورا بكل ذاتها في انشغالها بما يجري. تسأل، وتناقش، وتوافق، وتعترض، وتلصق الـشعارات، وتردد الهتافات، وتوزع المنشورات، وتذوب وسط الجموع المتلاصقة، الهاتفة. لم تفاجئني تصرفاتها. أرمينية هي القضية التي اختارتها لرسالة الماجستير، الاحتلال والتهجير والقتل والتدمير.

يقتحمني الخوف من أن تجرفها أمواج المتظاهرين. تقع تحت الأقدام فلا تملك الوقوف. تـتقاص يـدي على موفقها، وأجتذبها ناحيتي.

بدت كأنها تخوض معركتها الشخصية، لا تشغلها النتائج، ولا تتطلع لأفق الخطر. حتى المصادمات بين العساكر والمتظاهرين، كانت تجتذبها، تثيرها، وتتابعها. تدخل معي في مناقشات، تبدأ ولا تنتهـي. أسـتعيد أسئلتها وآراءها فيما لم أتصور أنها تحدثت فيه. تدرك - لابد - أن الدكتور جارو والخواجة أندريا يرفضان اقترابها من العمل السياسي. تتلفت - بعفوية - كمن تتأكد أنه ليس بيننا ثالث. تسأل، أو تبـدي الملاحظـة. تتشابك الخيوط، وتختلط، وإن لم تجاوز مساحة الأحداث التي نعيشها. تفاجئني بالمعلومة أو الفكرة التي ربما لم أفطن إليها. أحداث من المشهد الثقافي والسياسي. أمر الملك بدخول الحرب بحثاً عن الشعبية، لم يخطر في باله أنه سيخسر الحرب والشعبية. متطوعون من أوروبا الشرقية يصلون بطائراتهم للقتال إلي جانب اليهود. كان يجب علي الدول العربية أن تساعد الفلسطينيين علي خوض معركتهم، ولا تحارب بالنيابة عنهم. تقتصر مشاركتها علي المتطوعين. تظل الحرب فلسطينية يهودية، وليست عربية يهودية، فلا يكسب اليهود عطفاً لا يستحقونه. إذا لم تكن تعرف، فإن العالم كله مع دولة اليهود في فلسطين، من أقنعته الـسياسة ومـن أقنعتـه الرشوة. أنت تكتفي بقراءة الصحيفة العربية، وأنا أقرأ الصحف الأجنبية أيضاً..

فاجأتني بالقول:

- مشكلة العرب أنهم يتعاملون مع اليهود باعتبارهم عصابات!

- هم كذلك بالفعل!

- لماذا إذن قبلوا الهدنة؟

- الأمم المتحدة هي التي قررت الهدنة.

قاطعتني:

- وهي التي أعلنت التقسيم، وهي التي احتشدت فيها كل الدول الكبري لإعطاء فلسطين لليهود

- إرادة المجتمع الدولي يجب أن تحترم!

- وخرق اليهود للهدنة.. ما معناه؟!

حدجتني بنظرة تتأمل الريبة التي لابد أنها نطقت في وجهي:

- أذكرك بأن العرب ضيعوا الأندلس بإهمالهم آخر قلاع الجنوب الأسباني..

خلت حياتنا إلا من مفردات المظاهرة، والإضراب، والاعتصام، وتوقف المواصـلات، والمنـشورات، والعمال، والطلبة، والصهيونية، وفلسطين، وإيقاف الدراسة. إذا كانت الحكومات المصرية قد أخفقت في حل

فهرس

قضية مصر أمام مجلس الأمن، فكيف نتوقع أن تحل قضية فلسطين؟. ما حدث في دير ياسين يدل علـي أن اليهود يريدون طرد العرب من فلسطين، وليس مشاركتهم الحياة فيها. انشغل ملوك العرب بالحصول علـي قطع من تورتة فلسطين، بينما حصل اليهود علي تأييد الشرق والغرب. هل هي أسلحة فاسـدة، أم قيـادات فاسدة؟ من يدفع ثمن الخيانة؟

ألفنا المظاهرات، وهجمات عساكر البوليس، وضربات الهراوات، ودبشكات البنادق، وخراطيم الميـاه، والقنابل المسيلة للدموع، وإطلاق الرصاص في الهواء. شاركنا المتظاهرين في التقاط قطـع الحجـارة مـن الخرابات والبيوت المتهدمة والساحات، وفي قطع الأشجار، وانتزاع أعمدة النور، وإقامة المتـاريس وسـط الشوارع، وفي تقاطعاتها.

استقرت في داخلي أشواق إلي أجوبة عن أسئلة، تشغلني دون أن تكتمل مفرداتها..

***

فاجأني، أذهلني، ما فعلته نورا..

قفزت إلي مقدمة سيارة واقفة إلي جانب الطريق. بدت بالتايير الكحلي المنسدل إلي ما فـوق قـدميها، أعلي من كل الرءوس المتلاصقة. هزت قبضتها، وهتفت بآخر صوتها: الاستقلال التام أو الموت الزؤام..

كأنه مجموعة أصوات، تختلف عما اعتدته في صوتها، وإن تآلفت الأصوات في هارمونيـة اجتـذبت صمت المتظاهرين. أعادت رفع قبضتها، وخفضها. هزتها في الهواء..

ردد المتظاهرون الهتاف: الاستقلال التام أو الموت الزؤام..

أخذ الهتاف شكل الإيقاع المنتظم. تسارع. رددت البنايات المحيطة بالميدان أصداء الهتاف..

أبطأت الخطوات، توقفت تماماً، لما ظهر عساكر البوليس يسدون الشوارع الرئيسية المتفرعة من ميدان محمد علي وميدان المنشية. ثلاثة صفوف متراصة، يحملون العصي والمصدات الزجاجية. حول طريق السيارات إلي الكورنيش والشوارع المتفرعة منه. سدت كل المنافذ. بدت العودة إلي بحري مستحيلة..

اختلطت قطع الحجارة والهتافات، والعصي والهراوات وكعوب البنادق والدروع والخـوذات ودخـان القنابل المسيلة للدموع..

تفرقت المظاهرة إلي مظاهرات صغيرة. لاذت بالشوارع الصغيرة، الجانبية. تبادلنا نظـرات الحيـرة. مددت يدي ـ بتلقائية ـ فأمسكت بذراعها , وسبقتها إلي شارع *جانبي*..

سرنا صامتين..

ملنا إلي انحناءات الشوارع الجانبية، لا نقصد شارعاً، ولا نتوقف لتبين ما إذا كنـا نعـرف اتجاهنـا. تصخب في داخلي ـ حدست أن هذا هو ما كانت تعانيه ـ ومضات المظاهرة وهتـاف نـورا وضـربات العساكر والدماء والصراخ. هدأت خطواتنا ـ بالطمأنينة ـ والكورنيش يطالعنا أمام قهوة المطري..

دخل ـ دون تعمد ـ عالمي الذي اقتصر ـ منذ تركت عيسي أبو الغيط ـ علـي دراسـات القـضية المصرية، وقضايا وادي النيل، والقضية الفلسطينية. ثم الخروج في مظاهرات، وعقد المـؤتمرات، وحبـي لنورا الذي يشبه سمكة يرفض الصياد جذبها!

ارتبكت للخاطر الذي راودني بأن أضمها إلي صدري. أقبل شعرها وجبينها وخديها وشفتيها. زاد في ارتباكي مشيتها الصامتة، ونظرة ـ غير متأملة ـ تتجه بها إلي الأفق. وكان قوس قزح يتوسط الميناء الشرقية.

قالت:

ـ لم أتصور أني سأواجه هذا الموقف..

وأنا أحدق في وجهها الشاحب:

ـ هل أصبت؟

يبدو أن العسكري أشفق علي، فوجه ضربته إلي الشاب بجانبي..

ـ من؟

ـ لا أعرفه.. شاب من المتظاهرين!

ـ مشاركة البنات في المظاهرات قليلة.. لكنك الأولي في قيادة المتظاهرين..

وهي تستعيد ابتسامتها:

ـ لا أدري كيف جري ما حدث.. الانفعال وحده دفعني إلي ما فعلت!

أردفت في عفوية:

ـ الانتماء جميل!

***

قال لي فيصل مصيلحي:

ـ أنت تسير في زقاق مسدود..

ـ لماذا؟

ـ علاقتك بهذه الفتاة لها نهاية واحدة، هي الفراق..

رفع كتفيه في نفاد صبر:

ـ ما معني أن تحب فتاة لا أمل لك في الزواج منها؟

ـ ليس عند أي منا موانع طبية. يمكن أن نتزوج..

ـ توجد موانع شرعية. إنها من ديانة مختلفة..

ـ ديننا لا يمنع الزواج من الكتابية..

ـ وأهلها.. هل يوافقون؟

ـ ترحيبهم بعلاقتنا يؤكد موافقتهم..

ـ رحبوا بالصداقة لا بالزواج..

ـ الخواجة أندريا متعصب للأرمن، لكنه متسامح في الدين..

قال في نبرة حاسمة:

ـ قراءة قصص الحب في الروايات شيء، ومحاولة تقمص شخصيات تلك القصص شيء آخر

ـ ١٥ ـ

قال العجوز:

ـ لا تخرجي من بيتك هذه الأيام..

ـ لماذا؟

ـ المظاهرات..

وهز إصبعه:

ـ لا تخرجي.. ولا تأتي إلي العيادة..

حذرها من أوامر الضرب في المليان. المليان هو أجساد المتظاهرين. طلقات الرصاص تندفع من كـل مكان، تتجه إلي غير مكان. حتي الفرار يبدو مستحيلاً. إن لم تخافي علي نفسك، فاشفقي علي أبويك.

قالت في لهجة مهونة:

ـ الأمر ليس بهذه الخطورة..

ـ قد يتفجر الوضع بأشد مما نتصوره..

وفاجأني بالقول:

ـ اصحبها إلي محطة الترام..

ملنا ناحية البحر..

آثار تحطيم وتكسير متناثرة في شارع إسماعيل صبري. قهوة فاروق خالية من الرواد، ومعظم الأبواب مغلقة، والكراسي تكومت فوق الطاولات. سحب بيضاء، صغيرة، تتناثر في السماء، ومن وراء الكورنيش الحجري تترامي أصوات التكسرات المستمرة لمد الموج علي المصدات الأسمنتية.

قالت نورا:

ـ حتي أبي طلب أن أظل في البيت، ولا أذهب إلي الكلية.

ولوت شفتها السفلي:

ـ ولا حتي إلي مكتب أبي..

استطردت لنظرتي المتسائلة:

ـ أتردد عليه ساعتين كل صباح لمساعدته في إنجاز الأوراق المهمة.

قلت:

ـ ما شأن ذلك بما يحدث؟

ـ امتدت المظاهرات إلي كل مكان..

ـ أتصور أنه ليس ملحاً ذهابك إلي الكلية أو المكتب..

ـ صحيح.. لكن أوامر المنع تثيرني!

استعدت العبارة:

- مات النقراشي؟

جاء صوت فيصل مصيلحي علي التليفون محملاً بالتوتر:

- قتله عضو في الإخوان المسلمين.

ظل متكتماً صلته بجماعة الإخوان المسلمين، لكنني كنت أدرك - من كلماته وتصرفاته - ارتباطه بالجماعة علي نحو ما. أطالع الصحف. أكتفي بنظرة تساؤل صامتة إلي عينيه. تومضان بما أحدس أنه يخفيه: قتل القاضي أحمد الخازندار. إلقاء القنابل والمتفجرات علي أقسام البوليس في الخليفة والموسكي وباب الشعرية والجمالية ومصر القديمة والأزبكية والسيدة زينب. إلقاء القنابل - في ليلة عيد الميلاد - علي محال يرتادها جنود الجيش البريطاني. توالي الانفجارات في ممتلكات اليهود: بنزايون، جاتينيو، شركة الدلتا التجارية، ماركوني، شيكوريل، شركة الإعلانات المصرية، تدمير بيوت في حارة اليهود، قتل حكمدار القاهرة سليم زكي، إلقاء قنبلة علي رجال الأمن بالمدرسة الخديوية..

فضل فيصل أن نلتقي في قهوة فاروق. مشكلات صغيرة، علينا إنهاؤها قبل أن نلتقي في العلن. روي - بكلمات سريعة - ظروف قتل النقراشي. أطلق عليه طالب البيطري عبد المجيد أحمد حسن ثلاث رصاصات، وهو يتهيأ للصعود إلي مكتبه بوزارة الداخلية.

بدا فيصل ميتاً من الخوف وهو يهمس بقرار حل جماعة الإخوان المسلمين وشعبها، إغلاق الأمكنة المخصصة لنشاطها: المصانع والشركات والمعاهد والمستشفيات، ضبط أوراقها، وثائقها، سجلاتها، مطبوعاتها، أموالها، كل الأشياء المملوكة لها. حتي شعبة الإخوان في البناية المطلة علي ميدان أبو العباس، رآه مغلقاً - في وقفته أعلي الدحديرة الخلفية للجامع - وأمامه عساكر..

قلت:

- هل ينطبق القرار علي الشركة؟

- أي شركة؟

- شركتنا.. شركتك..

- لا شأن لهم بها. ورثتها عن أبي..

ونقر جبهته بإصبعه:

- في دولاب حجرة هناء زكريا آلة طباعة بالبالوظة. لابد من وسيلة لإخفائها..

هل كان يمارس في الشركة نشاطاً سياسياً؟

اعتدت - في عودتي إلي البيت علي الكورنيش - رؤية الضوء المنبعث من خصاص النافذة المغلقة. أحدس بقاءه في الشركة لإنجاز ما يتطلب السهر. ربما كان يلتقي بمن لا أعرفهم - هل هم أعضاء في الجماعة؟ - أو يدير آلة الطباعة في منشورات يخفيها؟

أدركت أنه تخلي عما ألفته منه: إذا استعصت عليه مشكلة، أو بدت نذرها، لجأ إلي جزيرته الخاصة، يحيطها بأسوار عالية، لا تأذن لأحد برؤية ما بداخلها..

همست بما يقلقه للدكتور جارو..

قال:

ـ ما أعرفه أن الاعتقالات شملت الشيوعيين أيضاً..

وتنحنح ليزيل احتباس صوته:

ـ كل من اختلف مع السعديين أودع المعتقلات!

ورنا ناحيتي بنظرة جانبية:

ـ خذ من صديقك آلة الطباعة التي يخشي ضبطها..

وأردف في لهجة مشاركة:

ـ وجودها في العيادة لن يثير الشكوك..

قلت في ذهول:

ـ هل تحتفظ بها هنا؟

ـ قلت إنه صديقك..

ـ أخشي أن أعرضك لمتاعب..

ـ عين البوليس لن تفطن إلي عيادة طبيب أرمني عجوز..

ورفع عيناً متسائلة:

ـ لماذا قتلوا النقراشي؟

قلت:

ـ اتهمه الأخوان بخيانة قضية فلسطين..

قال في نبرته الهادئة:

ـ قرار الحل منطقي في ظل تحول الإخوان إلي جماعة عسكرية..

اعتدل في جلسته بحيث واجهني. قال لنظرتي المستغربة:

ـ ما فعلته لأن صديقك تهدد في حريته. أرفض ـ لأسباب تعرفها ـ نفي أي إنسان ومصادرة رأيه وإلغاء حريته.

توقع أن يرد الإخوان المسلمون علي قرار الحل: الضربة مؤلمة، لكنها ليست قاتلة. المئات ـ مثل صديقك ـ خارج المعتقلات. هؤلاء لن يسكتوا. لابد أن يردوا. عرف الإخوان التشكيلات المسلحة والعمل السري واستخدام المتفجرات. لم تعد الكلمات وحدها وسيلتهم إلي التعبير. علينا أن ننتظر مفاجآت..

عاب علي الإخوان المسلمين أنهم أنفقوا الأموال في شراء السلاح، والتدرب علي استخدامه. لكن السلاح ظل في المخازن، حتي بدأ استخدامه في عمليات الاغتيال والتفجير. أتشكك في الدعاوي الدينية منذ استغلت حكومة الأتراك جهل مواطنيها المسلمين بحقيقة دينهم. حرضتهم علي قتلنا باعتبارنا كفاراً!

استعدت لقاءاتنا. لم يكن يشير إلي الدين علي أي نحو. وحين أتمتم " ا   أعظم " بتعالي صوت مؤذن جامع سيدي علي تمراز بالأذان " ا   أكبر " لم يكن يبدي ملاحظة ما..

قال:

ـ موقفي، رأيي، ضد الإخوان المسلمين. لا شأن لذلك باختلاف الديانة. ورثت عقيدتي، ولا شأن لي بها. إجازتي الأسبوعية أقضيها في البيت، لا أتردد علي الكنيسة. أعامل البشر باعتبارهم كذلك. ما فعله الأخوان المسلمون في عهد صدقي أثارني. مهادنة صدقي جريمة ارتكبها من ادعوا انتماءهم إلي دين متطور. أثق أن الإسلام دين متطور. إذا كان النقراشي قد أخطأ في حل الإخوان المسلمين، فإنهم قد أخطأوا بعمليات الاغتيال والتفجير..

وعلا صوته:

ـ من يضع يده في يد الديكتاتور فهو يوافق علي أفكاره وتصرفاته!

ثم غير صوته:

ـ كان في بالي أني غريب عن هذه المدينة، غريب عن مصر كلها. لا شأن لي بما أراه أو أسمعه. ثم جرني التعاطف مع الفلسطينيين إلي الاهتمام بما يعانونه، ثم اجتذبتني الأحداث فأنا ـ كما تـري ـ أنـشغل بها..

استطرد في ابتسامة متكلفة:

ـ التقاط طرف الخيط جر البكرة كلها..

***

كانت مفاتيح الشركة معي. أذهب إلي الشركة في كل صباح. أتوقع ضباط المباحث ـ أمام الباب، أو في الداخل ـ والإغلاق، والشمع الأحمر، والحراسة، وبطاقتك الشخصية، والسؤال: من تريد؟

ألغت الحكومة قرار حل جماعة الإخوان المسلمين. تشجع فيصل ـ بغياب مـا يقلـق ـ فعـاد إلـي الشركة..

ـ الحمد   أني لست واحداً من الآلاف الذين أودعوا المعتقلات.

قلت في نبرة لوم:

ـ لم تبلغني بعضويتك فيها..

تردد في الإجابة، ثم قال:

ـ ربما لأن الموضوع شخصي.

لم أتحدث عن الموضوعات الشخصية التي يقاسمني فيها الرأي: تحقيقات عيسوي أبو الغـيط، عيـادة الدكتور جارو، علاقتي بنورا..

اكتفيت بالقول:

ـ الحمد   !

أطرق إلي الأرض، ثم رفع عينين منداتين:

ـ أسخف الأمور أن تحتفظ في داخلك بخوف لا تصارح به أحداً!

أردف في كلمات متباطئة:

ـ الجهاد يتطلب شجاعة.. لا أمتلكها!

ـ حاولت أن ألتقي بك في صلاة الجمعة بعلي تمراز..

ـ اكتفيت بالصلاة في البيت..

ثم وهو يتشاغل بتقليب أوراق في يديه:

ـ همني أن أبتعد عن الجوامع..

تكلم عن الحزن الذي تملك مشاعره، وهو يحرق ـ في دورة المياه ـ كل ما له صلة بالجماعة. أوراق ومطبوعات ـ يري أنها مهمة ـ ائتمنته الجماعة عليها. حتي خطب الإمام وكتب قيادات الجماعـة. حتـي الصورة الوحيدة وهو يتابع درساً للإمام البنا. أحزنه مجرد التفكير في رد السؤال، بعد أن تزول المحنة: أين الأوراق التي لديك؟

لم تمتد إلي المكتب يد التفتيش، ولا الإغلاق. شاب شعوري بالراحة إدراك أن فيصل مصيلحي كان أداة هامشية في نشاط الجماعة. لم تلحظها عين الدولة، فأهملتها.

واصل تقليب جواز السفر، كأنه يتأكد من أنه حصل عليه. غمغم بكلمات غير واضحة ولا مترابطـة، وإن عكست الفرحة في داخله..

قلت:

ـ هل هذه هي المرة الأولي التي تحصل فيها علي وثيقة سفر؟

ـ عندما قدمت إلي مصر اكتفيت بتجديد الإقامة..

لاحظ دهشتي من أنه استخرج الجواز للمرة الأولي. ألم يغادر مصر طيلة تلك السنوات؟

حدثني عن رحلته الوحيدة خارج مصر، بعد ثلاثة أعوام من استقراره بالإسكندرية. سافر إلـي الـشام ليلتقي بأفراد من رحلة النفي. أعياه النبش بأصابعه في كومة القش. تحـدد المـوطن فـي الإسـكندرية، لا يغادرها.

شرد بنظره إلي نقطة غير مرئية:

ـ لم أفكر في أني قد أعود إلي أرمينية..

ثم وهو يدني فنجان القهوة من فمه:

ـ أريد أن أحتسي هذا الفنجان هناك..

قلت:

ـ هل نسيت المذابح؟

ـ إذا استعدت الماضي فأنا أخلصه من كل الذكريات السيئة!

حدثني عن رسالة من أرمينية. جميل أن أجد ـ بعد هذا العمر ـ من يراسلني. عد إلي الوطن لتقضي فيه ما بقي من حياة..

يسلمه الشرود إلي الحياة في أرمينية، إلي البنايات والشوارع الضيقة المغطاة بالأسقف والكاتـدرائيات والكنائس وجبال القوقاز، والبحر الأسود وبحر قزوين ونهر أراكس وبحيرة سيفان وجبـل أرارات، سـقف العالم..

ـ هو إذن يعرف أني في لحظات النهاية..

ـ لك طول العمر. أثق أنهم يحنّون إليك مثلما تحنّ إليهم..

قال:

ـ أفكر في العودة إلي أرمينية..

ـ لماذا؟

ـ هذا أفضل..

ـ كنت ترفض العودة إلي الحكم الشيوعي بعد انضمام أرمينية إلي الاتحاد السوفييتي في ١٩٢٢

ورمقته بنظرة مستفهمة:

ـ ما أعرفه أن الأمور لم تتغير..

ـ ليس صحيحاً. آلاف من المهاجرين عادوا إلي أرمينية في السنوات الأخيرة..

ـ لماذا؟

وهو يشيح بيده:

ـ لماذا.. لماذا.. ربما لأن الأوضاع تغيرت..

ثم فيما يشبه الضيق:

ـ أنا أرمني، ولست سوفييتياً!

- ١٨ -

كنا نطل - من وقفتنا داخل الحجرة - علي صدام المتظاهرين والجنود. اصطف العساكر علي مفارق الطرق. حاصروا المظاهرة، وتقدموا في اتجاهها. انقضوا بالعصي والسيور الجلدية. اختلطت الهتافات والضربات والبروق والصواعق والبراكين والصرخات الوحشية..

صرخت نورا بما أخافني. كأنها تواجه الموت..

لم ألحظ كيف سقط الشاب، لكن العسكري أهمل الأنين والحركات المتشنجة. واصل الضرب بدبشك البندقية حتي هدأت حركة الشاب تماماً، كأنه مات. أدارت نحوي ملامح مستغيثة.. قهرها الخوف، تصورت موت الشاب قد انتقل إليها. احتضنتني. دست رأسها في صدري، كأنها تريد أن تدخل جسمي. أحسست صدرها وهو يتنفس في صدري. مسدت أصابعي شعرها وعنقها وكتفيها وذراعيها. اقتربت شفتاي من شفتيها. تظاهرت بالرفض، وإن بدا القبول في إغماض عينيها..

قالت - في صوت مرتعش - إنها أحست بتكسر عظامها، والعسكري ينهال علي الشاب بدبشك البندقية..

تخليت عن قراري في أن أرجئ مصارحتي بمشاعري قبل أن أتأكد من أنها تبادلني المشاعر نفسها. حلقنا في أفق المينا الشرقية. شيدنا القصور علي السحب. سرنا فوق الماء كما المتصوفة. راقصنا عرائس البحر في الأعماق البعيدة. انتشينا بالسحر والأسطورة. بدت الجنة متاحة في الدنيا.

سرقتنا اللحظة. لم ألحظ متي تراخت ذراعاها، ولا كيف تغيرت ملامحها، وغاب الشرود علي نظرتها، كأنها لا تري ما تتجه إليه عيناها..

غلبني شعور بالارتباك:

- كنت أظن أنك لا تعنين بفكرة الخطيئة؟

أدركت سخف ما قلت، فتمنيت أن أعتذر..

أحيا معها بمشاعر موزعة بين العاطفة والرغبة. لا أدري متي، ولا كيف تحل اللحظة التي تجتذبني. أحلق معها في سماوات لانهائية الآفاق، تتناغم فيها أصوات الشفافية والسحر. أشعر - في لحظات تفاجئني - أن ما أطلبه هو جسدها، لا شأن لي بآرائها، ولا رسالتها الجامعية، ولا حتي بالدكتور جارو والخواجة أندريا. الجسد هو المطلب الذي أتوق لملامسته وعناقه. أركز في الجسد الذي تخفيه ثيابها. أتصور علاقة تبرق فيها الرعود، وتشتعل النيران..

مشطت شعرها بأصابعها، وعدلت الجونلة، وواجهتني بنظرة متسائلة:

- هل تظنني مومساً؟

- بل أثق أنك محبة..

- لا أحب أن تنظر لي نظرة الذكر إلي الأنثي..

- لكننا كذلك بالفعل..

مدت يدها تدير خصلة الشعر:

ـ نحن أصدقاء. هذا يكفي!

أخذت حقيبتها القماشية من علي الكرسي. طوحت بها في الهواء. نقلتها من يد إلي الأخري. ألقت بهـا علي كتفها. همست بالسلام، واتجهت ناحية الباب..

ـ ١٩ ـ

أسرعت في خطواتي. قفزت درجات السلم، لأبلغ فيصل مصيلحي بالنبأ الذي نشرته الصحف: حـسن البنا قتل في أثناء خروجه من مبني جمعية الشبان المسلمين.

اكتفي بالقول وهو يتطلع من الشرفة المطلة علي شارع التتويج:

ـ أعرف..

هل كان يتوقع ما حدث؟

قال:

ـ ما يحيرني أن الأستاذ البنا أصدر بياناً هاجم فيه قاتل النقراشي..

حدجني بنظرة جانبية:

ـ لماذا دفعوه إذن إلي إصدار البيان ماداموا قرروا قتله..

قلت:

ـ قتله الإخوان عندما وضعوا حقيبة المتفجرات في مبني محكمة الاستئناف..

وهو يهز رأسه:

ـ أضعف إبراهيم عبد الهادي الإخوان المسلمين لصالح الوفد.

قلت:

ـ الحمد   أنك أفلت من الاعتقال

ـ أنا واحد من نصف مليون عضو في الإخوان..

وعلا حاجباه في تساؤل مستغرب:

ـ من الصعب أن يقتلوا كل هذا العدد!

ثم بصوت خفيض:

ـ لا تنس أني استقلت من الإخوان منذ مقتل النقراشي!

أذهلتني البساطة التي تحدث بها عن استقالته، كأنه لم يكن ذلك العضو الذي يطبع المنشورات، ويحتفظ بها، ويخفي ما يفعل.

كان يتابع حملات الاعتقال، والمصادرات. تتبدل ملامحه بتوالي متابعتنا للأخبار. يحاول كتم ما يعانيه من خوف. يجري بلسانه علي شفتيه ـ بعفوية ـ كمن يتذوق العطش. يعلو صوته ليقضي ـ هذا ما أتصوره ـ علي القلق في داخله..

ـ ٢٠ ـ

هل اعتبرت اعتزام جارو السفر نهاية لعلاقتنا؟

ترددت علي الأماكن التي اعتدنا اللقاء فيها. مكتبة البلدية، مكتبة الجامعة، ميدان محطة الرمل، شـاطئ ستانلي، المسافة من الكورنيش بين تمثال الخديو إسماعيل ولسان السلسلة، قلعة قايتباي، ميدان أبو العبـاس. حتي بائع الصحف علي ناصية أجزخانة جاليتي، سألته عنها..

قال في ابتسامة تذكر:

ـ نعم.. البنت الخوجاية..

وقلب شفته السفلي:

ـ لم أرها إلا معك..

رنا فيصل مصيلحي ناحيتي بنظرة مشفقة:

ـ يبدو أن علينا تبادل النصائح..

ثم هز سبابته في وجهي:

ـ لا تكثر من الحركة هذه الأيام..

ـ ماذا تقصد؟

ـ المظاهرات والمؤتمرات الشعبية. نحن في حرب، وعين البوليس صاحية، ويده لا ترحم!

***

كان الوقت عصراً..

لمحت ضلفتي الشرفة المطلة علي المينا الشرقية مفتوحتين. مضيت نحو البيت بعفوية. ضغطت علـي الجرس.

ـ نورا..

كانت تعاني ارتباكاً، والترحيب يغيب عن نظراتها..

ـ ماذا حدث؟

أدارت وجهها تتفادي نظرتي المتسائلة:

ـ لا شئ..

سبقتني إلي مقعد الدكتور جارو. أكرهت نفسي علي الابتسام، حتي لا تفطن إلي ما أعانيه..

ـ تبدين متغيرة..

وهي تهز الهواء براحتها:

ـ لعله الحر!

تظل ساكتة، ثم تقول:

ـ قد يتأخر الدكتور عن العيادة..

ـ هذه فرصة لنتبادل الحديث..

واستطردت:

ـ لم أرك منذ أيام..

بدا أنها تريد تفويت الملاحظة:

ـ أظن أن جارو لن يأتي اليوم..

لاحظت نطقها اسمه دون لقب. أردفت:

ـ طلب مني أن أتحدث إليك..

ـ ماذا تخفين؟ ماذا تخفيان؟

ـ تزوجت الدكتور ليلة أمس..

ت.. ز.. و.. جـ.. ت..

متي، وكيف، نشأت العلاقة؟

كنت علي ثقة أن نورا والعجوز من عالمين متباعدين، يجهل أحدهما أفكار الآخر ومشاعره. لم ألحـظ عاطفة ما بينها وبين العجوز: عبارة، ضحكة، تبدل نبرة الصوت، لمسة الأصابع علي ظهر اليد، همسة فـي الأذن، إيماءة، ابتسامة ذات مغزي. صمت مفاجئ مرتبك. أي تصرف يشي بعاطفة معلنة، أو مستترة. حتي حواراتهما بالأرمنية غاب عنها انفعال العاطفة.

قلت وأنا أحاول السيطرة علي مشاعري من تأثير المفاجأة:

ـ لماذا لم يحدثني الدكتور جارو بنفسه؟ لماذا لم يبلغني باعتزامه الرحيل؟

قالت:

ـ هو يحبك كما تعلم!

الحب دعوي كاذبة. يختفي المجرم بعد ارتكاب جريمته. أدرك العجوز ما فعل، فلجأ إلي الاختفـاء. إن لم يكن هذا هو العداء، فماذا يكون؟

داخلني إحساس أن كل شيء زائف، وغير حقيقي. التفت البنايات بعاصفة من الغبار المصفر، وحلقـت الطيور السوداء في أفق المينا الشرقية، وتساقطت حجارة الكورنيش في قلب البحر، وواصل عفريـت الليـل سيره دون أن يضيء بعصاه فوانيس الطريق، وتداخلت حلقة الذكر المترامية من علي تمراز بمـا اختلطـت كلماته ومعانيه، وعانت صفارات البواخر في الميناء الغربية حشرجة مقبضة، وتحول ميدان الخمس فوانيس إلي سرادق للعزاء، وهتفت المظاهرات للظلم، وللشيطان، وتمنيت لو أن الأتراك أفنوا الأرمن عن آخرهم..

ـ أنت؟!

وفي دهشة:

ـ لكنك..

ـ أعترف أني أحبك..

عصتني الكلمات، تتشكل في فمي، لكنني أعجز عن نطقها:

ـ وأنت برهنت لي علي حبك..

شعرت أن العبارة أفلتت مني دون أن أتدبر المعني. استطردت:

ـ ووافقت علي زواجنا..

ـ أن أحبك، لا يعني أن أتزوجك..

وسرت ارتعاشة في صوتها:

ـ الحب شئ والزواج شئ آخر..

شردت في معني الكلمات، ثم غمغمت كأني أخاطب نفسي:

ـ أنا لا أفهمك..

ـ الزواج استقرار. أريد أن أستقر في أرمينية..

استطردت في ابتسامة متكلفة:

ـ تزوجته ليصحبني إلي أرمينية..

ـ لا أفهم.. هل زواجك منه شرط للسفر؟

ـ جنسيتي مصرية..

ثم وهي تضغط علي الكلمات:

ـ هذه فرصتي الوحيدة لأري أرمينية..

ـ تتخلين عن كل شيء لرؤيتها؟

ـ أذهب للإقامة لا للفرجة!

ـ ألن تستكملي إعداد الماجستير؟

ـ ما أريده الآن أن أسافر إلي أرمينية.

ـ سافري للسياحة.. للفسحة.. وعودي..

ـ لا أهل للدكتور هناك..

أضافت في نبرة واثقة:

ـ يريدني أن أكون أهله..

ـ هذه مشاعر شفقة..

ـ أطلت التفكير قبل أن أتخذ قراري..

ـ الرجل أكبر من أبيك..

ـ أعرف..

لم يعد لدي ما أقوله، فسكت. رفضت أن أجتر الكلمات التي لا تعني شيئاً في الأغاب..

حل صمت، مفعم بالمعاني الحزينة. أحسست أني وحيد في صحراء مترامية الأطراف..

بدا لي العالم مليئاً بالأسئلة القاسية، وبالألغاز. لماذا لم يحدثني العجوز عن العلاقة بينه وبينهـا؟ لمـاذا صمت عن تعلقي بها ـ لابد أنه لاحظه ـ وواصل نسج غزله حتي ألقي طراحته في وقت لا أعرفه، وفـاز بعروس البحر؟ هل حدثته عن مصارحتي بحبي له؟ هل كان يعتبرني غريماً؟..

شغلني، صرف انتباهي، بمتاعب الشيخوخة، البناية المهددة بالانهيار، اختلاف الرأي بتباعد السن. لـم يحاول حتي مجرد الإشارة، فأكف عن إلحاح النظرات، أو أستكين إلي تلاشي التوقع..

خمنت من نظرته المتأملة، الصامتة، فهمه وموافقته. فارق السن بينه وبينها، بينه وبيني، لـم يطـرح معني مغايراً. علاقة الأب بابنته هي التي تصورتها، بين رجل متقدم في الـسن وفتـاة تـصغره بعـشرات الأعوام..

انطلق الخيال. توقعت أن يريحني العجوز من عناء المصارحة، ومن العقبات التي ربما تفرضها أسئلة غير متوقعة من أسرة الخواجة أندريا؟

قلت:

ـ هل يعرف الخواجة أندريا؟

ـ هذا شأني..

في دهشة:

ـ تتزوجين دون أن تستشيري أسرتك؟ دون أن تخبريها؟

ـ أنا لست فتاة من بحري..

ضايقتني العبارة، وإن جاوزتها بالقول:

ـ أرجو أن تعيدي مناقشة قرارك..

ـ ما قررته نفذته بالفعل. تزوجت الدكتور جارو..

ـ سأتغاضي عن الإهانة لأني أريد أن نفترق صديقين!

تباعدنا بالصمت، وبالنظرات المحدقة في الأرض..

حاصرتني الأسئلة: لماذا؟ وكيف؟ وهل تسافر مع العجوز بالفعل، فلا تعود؟..

بدت كل الكلمات فاقدة المعني، وسخيفة، فلا يمكن النطق بها. أضفت صـمتها الـواجم إلـي الجـدار الزجاجي بيننا..

داخلني شعور بأني سأحرم من رؤيتها إلي الأبد. لا أتصور أني أستطيع فراقها. تصحبني إلـي بـاب الشقة. تودعني، ثم تغلق الباب. أظل في ذاكرتها ـ ربما ـ لأعوام، ثم تذوي الملامح، تشحب، تختفي. مـا كان كأنه لم يكن. لقاءات العيادة، ذكريات الدكتور جارو، الجلوس علـي شـاطئ البحـر، رفـض فيـصل مصيلحي، ملاحظات الخواجة أندريا، المناقشات، المظاهرات، الأسرار الصغيرة، التردد علي أمكنة المدينة: الشوارع الخالية، والزحام، واللافتات، والأشجار، والكورنيش، والحدائق، ورائحة البحر، وزرقـة الـسماء، ورذاذ الأمواج، وركوب الترام، وباعة النواصي، وظلال الشمس علي الجدران، وتلاقي الأذان في المـساجد القريبة.

هل تواتيني الجرأة لزيارة أسرتها؟..

هبطت السلالم إلي الباب الخارجي..

طالعني شارع إسماعيل صبري بحركته الهادئة. الشرفات الحجرية ذات المقرنصات والأشكال تمتد بطول الواجهة، ضوء العصر يعلو البنايات، فغطت التندات الشرفات المفتوحة. امتزج نداء الجرسون في المقهي علي ناصية الشارع بأذان العصر من مئذنة جامع علي تمراز المجاور..

عبرت تقاطع الشارع مع شارع فرنسا وشارع رأس التين. علي ناصية شارع التتويج عربة حنطور، راح السائق في إغفاءة، فوق كرسيه، ودس الحصان رأسه في مخلاة التبن. في الناحية المقابلة عربة تين شوكي، ينزع البائع بالسكين أغلفته الشوكية عن الثمار، وعفريت الليل يضيء لمبات غاز الاستصباح

مضيت في اتجاه البحر..

التفت - بتلقائية - ناحية شرفة الطابق الأول. كانت نورا تغلق ضلفتي الشرفة. تنبهت - بسخونة الشمس - إلي أني أطلت الوقفة أمام قهوة فاروق. يتعالي من داخلها نداءات الجرسون، وأصوات لاعبي الطاولة والكوتشينة، وطرقعة القشاط علي الطاولة، وصوت عبد الوهاب يغني للجندول. وثمة ماسح أحذية يرنو - بنظرة متوسلة - إلي أحذية الجالسين، وهو يضرب علي الصندوق بظهر الفرشاة، وقط - أسفل الرصيف - قوّس ظهره في مواجهة نباح كلاب..

البحر حصيرة. ألق الشمس يضوي علي مياهه، وثلاثة قوارب متناثرة، ألقي أصحابها طراحاتهم، وانتظروا الصيد. ثمة في الرمال، وبين الأحجار الصغيرة والحصي، جحور للكابوريا، وطحالب، وبقايا أعشاب، وقناديل ميتة. سحابات من الطيور الداكنة اللون، تحلق في السماء. تقترب، تتباعد، تعلو في اتجاه الأفق، ثم تعود، ثم تنطلق. تشحب في انطلاقها، حتي تغيب تماماً..

محمد جبريل

مصر الجديدة - إبريل ١٩٩٦

شكر

من واجبي أن أوجه الشكر إلي الباحث الدكتور محمد رفعت الإمام مدرس التاريخ الحديث والمعاصر بآداب دمنهور، جامعة الإسكندرية، الذي تفضل بتزويدي بالعديد من المراجع التاريخية التي أفدت منهـا في كتابة هذه الرواية.

مؤلفات محمد جبريل

١ ـ تلك اللحظة (مجموعة قصصية) ١٩٧٠ ـ نفد
٢ ـ الأسوار (رواية) ١٩٧٢ هيئة الكتاب ـ الطبعة الثانية ١٩٩٩ مكتبة مصر
٣ ـ مصر في قصص كتابها المعاصرين (دراسة) الكتاب الحائز علي جائزة الدولة ـ ١٩٧٣ هيئة الكتاب
٤ ـ انعكاسات الأيام العصيبة (مجموعة قصصية) ١٩٨١ مكتبة مصر ـ ترجمت بعض قصصها إلي الفرنسية
٥ ـ إمام آخر الزمان (رواية) الطبعة الأولي ١٩٨٤ مكتبة مصر ـ الطبعة الثانية ١٩٩٩ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية
٦ ـ مصر.. من يريدها بسوء (مقالات) ١٩٨٦ دار الحرية
٧ ـ هل (مجموعة قصصية) ١٩٨٧ هيئة الكتاب ـ ترجمت بعض قصصها إلي الإنجليزية والماليزية
٨ ـ من أوراق أبي الطيب المتنبي (رواية) الطبعة الأولي ١٩٨٨ هيئة الكتاب ـ الطبعة الثانية ١٩٩٥ مكتبة مصر
٩ ـ قاضي البهار ينزل البحر (رواية) ١٩٨٩ هيئة الكتاب
١٠ ـ الصهبة (رواية) ١٩٩٠ هيئة الكتاب
١١ ـ قلعة الجبل (رواية) ١٩٩١ روايات الهلال
١٢ ـ النظر إلي أسفل (رواية) ١٩٩٢ ـ هيئة الكتاب
١٣ ـ الخليج (رواية) ١٩٩٣ هيئة الكتاب
١٤ ـ نجيب محفوظ.. صداقة جيلين (دراسة) ١٩٩٣ هيئة قصور الثقافة
١٥ ـ اعترافات سيد القرية (رواية) ١٩٩٤ روايات الهلال
١٦ ـ السحار.. رحلة إلي السيرة النبوية (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر
١٧ ـ آباء الستينيات.. جيل لجنة النشر للجامعيين (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر
١٨ ـ قراءة في شخصيات مصرية (مقالات) ١٩٩٥ هيئة قصور الثقافة
١٩ ـ زهرة الصباح (رواية) ١٩٩٥ هيئة الكتاب
٢٠ ـ الشاطئ الآخر (رواية) ١٩٩٦ مكتبة مصر ـ ترجمت إلي الإنجليزية ـ الطبعة الثالثة ٢٠٠٢ هيئة الكتاب
٢١ ـ حكايات وهوامش من حياة المبتلي (مجموعة قصصية) ١٩٩٦ هيئة قصور الثقافة
٢٢ ـ سوق العيد (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب
٢٣ ـ انفراجة الباب (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب ـ ترجمت بعض قصصها إلي الماليزية
٢٤ ـ أبو العباس ـ رباعية بحري (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر
٢٥ ـ ياقوت العرش ـ رباعية بحري (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر
٢٦ ـ البوصيري ـ رباعية بحري (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر
٢٧ ـ علي تمراز ـ رباعية بحري (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر
٢٨ ـ بوح الأسرار (رواية) ١٩٩٩ روايات الهلال
٢٩ ـ مصر المكان (دراسة في القصة والرواية) ١٩٩٨ هيئة قصور الثقافة ـ الطبعة الثانية ٢٠٠٠ ـ المجلس الأعلي للثقافة
٣٠ ـ حكايات عن جزيرة فاروس (سيرة ذاتية) ١٩٩٨ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية
٣١ ـ الحياة ثانية (رواية تسجيلية) ١٩٩٩ ـ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية
٣٢ ـ حارة اليهود (مختارات قصصية) ١٩٩٩ ـ هيئة قصور الثقافة
٣٣ ـ رسالة السهم الذي لا يخطئ (مجموعة قصصية) ٢٠٠٠ ـ مكتبة مصر
٣٤ ـ المينا الشرقية (رواية) ٢٠٠٠ ـ مركز الحضارة العربية

٣٥ ـ مد الموج ـ تبقيعات نثرية (رواية) ٢٠٠٠ ـ مركز الحضارة العربية
٣٦ ـ البطل في الوجدان الشعبي المصري (دراسة) ٢٠٠٠ـ هيئة قصور الثقافة
٣٧ ـ نجم وحيد في الأفق (رواية) ٢٠٠١ ـ مكتبة مصر
٣٨ ـ زمان الوصل (رواية) ٢٠٠٢ ـ مكتبة مصر
٣٩ ـ موت قارع الأجراس (مجموعة قصصية) ٢٠٠٢ ـ هيئة قصور الثقافة
٤٠ ـ ما ذكره رواة الأخبار عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر ا (رواية) ٢٠٠٣ ـ روايات الهلال
٤١ ـ حكايات الفصول الأربعة (رواية) ٢٠٠٤ ـ دار البستاني
٤٢ ـ زوينة (رواية) ٢٠٠٤ ـ الكتاب الفضي

كتب عن المؤلف

- الفن القصصي عند محمد جبريل ـ مجموعة من الباحثين ـ مكتب منيرفا بالزقازيق
- دراسات في أدب محمد جبريل ـ مجموعة من الباحثين ـ مكتب منيرفا بالزقازيق
- صورة البطل المطارد في روايات محمد جبريل ـ د. حسين علي محمد ـ دار الوفاء بالإسكندرية
- فسيفساء نقدية: تأملات في العالم الروائي لمحمد جبريل ـ د. ماهر شفيق فريد ـ دار الوفاء بالإسكندرية.
- محمد جبريل.. موال سكندري ـ فريد معوض وآخرين ـ كتاب سمول
- استلهام التراث في روايات محمد جبريل ـ سعيد الطواب (دكتور) ١٩٩٩ دار السندباد للنشر
- تجربة القصة القصيرة في أدب محمد جبريل ـ حسين علي محمد (دكتور) ٢٠٠١ كلية اللغة العربية بالمنصورة ـ الطبعة الثانية ٢٠٠٤ ـ أصوات معاصرة
- فلسفة الحياة والموت في رواية الحياة ثانية ـ نعيمة فرطاس ـ ٢٠٠١ ـ أصوات معاصرة
- روائي من بحري ـ حسني سيد لبيب ـ ٢٠٠١ ـ هيئة قصور الثقافة
- محمد جبريل ـ مصر التي في خاطره ـ حسن حامد ـ ٢٠٠٢ ـ أصوات معاصرة
- سيميائية العقد في رواية النظر إلي أسفل ـ عبد الرحمن تبرماسين والعطرة بن دادة ـ ٢٠٠٤ ـ أصوات معاصرة